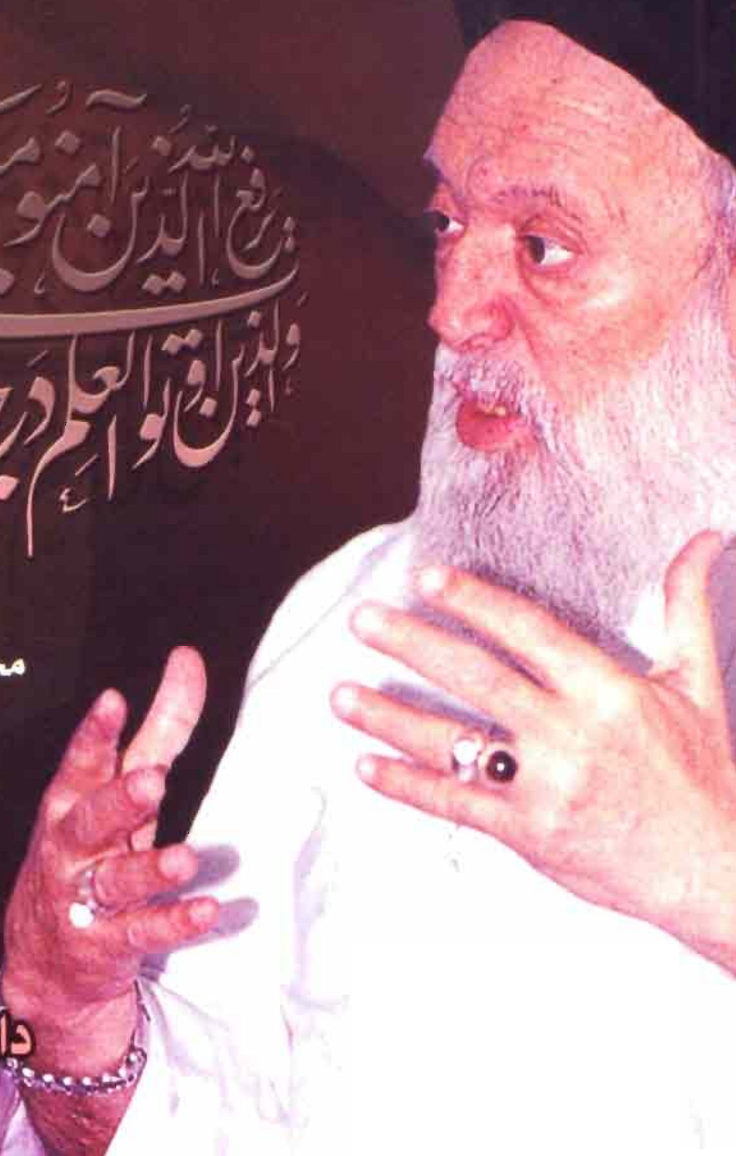
السيد محمد حسين فضل الله

مفسِّراً



محمد الحسيني

دار الملاك

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الاولى

١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م

دار الملاك للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بيروت ـ لبنان ـ حارة حريك ـ قرب مستشفى الساحل ـ هاتف: ٠٣/٧٥٥٢٠٠ ـ ٠١/٤٥٠٧٦٩

ص. ب ١٥٨/ ٢٥ الغبيري ـ Int: WWW. dar-almalak. com/Email: dam @ dar-almalak.com

السيد

محمد حسين فضل الله

مفسراً

محمد الحسيني

دار الملاك

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

سبق لي - قبل أربع سنين تقريباً - أن أصدرت كتابي (مطارحات في قضايا قرآنية - دراسة في تفسير من وحي القرآن في سياق مناهج التفسير السائدة)

وقد كان المتوخّى منه إماطة اللثام عن عددٍ من أفكار ورؤى السيد الاستاذ سماحة المرجع الديني والمفكر الاسلامي الكبير السيد محمد حسين فضل الله - دام ظله - ومنها ما يتصل بالتفسير. وقد نوهّت إلى أني لم أكن بصدد الحديث عن منهج التفسير عنده كما هي الدراسات التي تخصص لدراسة مناهج التفسير والمفسرين، بل اقتصرت على الإشارة إلى بعض الملامح الأساسية لمنهجه في التفسير مع بعض التطبيقات..

ومنذ ذلك الحين تجمّع لدي عدد من المعطيات التي ربما تكفي للوقوف على منهج السيد فضل الله في التفسير، وقد تركتها دونما تهذيب أو تنظيم، إلا أن إطلاعي على بحث أُعِدَّ لنيل شهادة الماجستير حمل العنوان: (دراسة لمنهج السيد محمد حسين فضل الله في تفسير من وحي القرآن) شجعني على تنظيم هذه المادة المتجمعة عسى أن تقدم شيئاً مهماً في الكشف عن منهج أحد أبرز مفسري القرن

الحالي. وقد أغفلت الإشارة إلى معدِّه لجهة عدم طبع البحث ولذلك ارتأيت مناقشة بعض ما ورد فيه دون تعرض لكاتبه.

وشجعني - أكثر من ذلك - على سرعة الانجاز أنّي وجدت هذه الدراسة - المشار إليها - على ما فيها من جهدٍ لا يستهان به ومتابعة مثابرة، عاجزة عن تغطية المنهج الذي حمل البحث عنوانه، وقد حاولت تسجيل عدة ملاحظات عليه دون أن يعني ذلك التقليل من قيمة البحث المشار اليه.

ومن الملاحظات التي يمكن الإشارة إليها:

١ - حمل البحث عنواناً يوحي لأول وهلة أن الباحث بصدد البحث عن منهج السيد فضل الله في التفسير من حيث أدواته وآلياته وطريقة فهمه للنص القرآني، إلا أنه في حقيقته بحث في المضمون الفكري الذي احتوى عليه تفسير من وحي القرآن.

وربما دفع هذا الغموض في تحديد خيار الباحث إلى تشابك وتداخل الأبحاث الفرعية التي اشتمل عليها البحث الرئيس وهذا ما حصل في البحث الخاص بالبعد الحركي والبحث الخاص بالبعد السياسي..

٢ - عدم الوضوح في تحديد منهج البحث ورّط الباحث في حشد عدد من الموضوعات دونما جامع وقاسم مشترك بينها، وهو ما يظهر في الفصل الثالث تحت عنوان «نماذج لمواضيع من تفسيره» وأدرج فيه: المرأة، الاسرائيليات، النسخ، حدود القرآن والنظريات العلمية الحديثة، الحديث والقرآن.. وكل واحدة من هذه الموضوعات يندرج في إطار منهجي خاص، كان على الباحث أن يحدِّده ويشخّصه مسبقاً..

٣ - يمكن أن يلاحظ على الباحث عدم المتابعة والتأني في البحث، وربما كانت بعض ملاحظاته متأثرة بهذه الملاحظة، فقد سجّل للسيد فضل الله في الخاتمة وبالتحديد في الفقرة رقم (٨) أنه «كان يشير إلى صور سياسية رائعة يستقيها من صور القرآن الذي يعتبر دستور الإسلام وكثير من العلاجات التي يحتاجها السياسي العامل، مثل عدم الاستسلام لأجواء الهزيمة السياسية أو دور القيادة والقاعدة، أو الغاية والوسيلة وغيرها من المفاهيم السياسية التي يستوحيها السيد فضل الله من آيات القرآن الكريم، ولكنه يسجل في ملاحظاته رقم (٥) على السيد فضل الله ملاحظة تفيد أن ما تضمنه تفسير من وحي القرآن من استنتاجات «يبقى مورد تساؤل في صحة استنتاجاته القرآنية خصوصا وأن هذا الدمج السياسي للاسلام وبهذه الطريقة يوحي إن الظروف السياسية التي عاشها فضل الله والعمل السياسي خلقت له هذه النظرات التي ربما تبتعد عن حقيقة المنظور القرآني».

وإذا كان من حق الباحث تسجيل ملاحظاته على موضوع بحثه، فإنه ملزم ببيانٍ تفصيلي أو اجمالي على الأقل لما يمكن أن يكون دخيلًا أو غير متطابقٍ مع حقيقة المنظور القرآني، وعندئذ لا يحق له أن يرسل الكلام إرسالًا دونما إفصاحٍ عن بعض مظاهر هذه الغربة بين استنتاجات السيد فضل الله في السياسة وبين المنظور القرآني..

ولو كان الباحث قد أخذ وقتاً طويلًا من المتابعة وتأنّى في متابعة بحثه لأفاد أكثر وجنّب نفسه مثل هذه الملاحظة.

وقد تبدو ملاحظاته خطيرة جداً فقد كتب (ص ١٥ من النسخة غير المطبوعة): «ان اعتماده - يعني السيد فضل الله - على الظاهر القرآني وعدم تقييده بإطار معين يلزمه ويحدد حركته أعطاه الفرصة لاجتهادات قد لا يقبلها البعض، ولكن وبلا شك فإن ثقافته العامة

والقرآنية واللغوية بشكل خاص أعطته أرضية خصبة في استيحاءات حرة تلتقي كثيراً مع الهادفية القرآنية».

وهذه الملاحظة التي سطرها الباحث لا تخلو من خطورة وتوحي بغياب المنهج عند السيد فضل الله، وإلا فكيف يكون حراً وغير مقيّد بإطار معين؟!! ثم أين هذه الاجتهادات التي ترشحت عن غياب هذا الإطار ورفضها البعض!! فلماذا لم يشر اليها الباحث؟!

ولو عمد الباحث إلى تحديد منهجه بدقة، وفي قراءة متأنية وواعية لتفسير (من وحي القرآن) لكان قد نأى بنفسه عن مثل هذه الأحكام ولوقف على حقيقة الاختلاف بين المفسرين، وقد كتب الباحث نفسه مشيراً إلى «وجود تباين في طريق الفهم والعرض للسيد فضل الله عن المفسرين الآخرين» ص ١٥، ولكن دون أن يكشف عن هذه الطريق.

٤ - يُلاحظ على الباحث استنتاجات في غير محلها، ويسجّلها الباحث دون أن يدعمها بمعطيات علمية، فمثلًا كتب بصدد الحديث عن موقف السيد فضل الله ربما يختلف جذرياً عن موقف السيد الطباطبائي الفلسفي، وربما يعود سبب ذلك إن السيد فضل الله لم ينغمس في دراسة الفلسفة ولم تستهويه مباحثها واعتقاده بعدم دوائية الفلسفة وخدمتها في تعميق إيمان الانسان» ص ١٠٧.

وربما يغالي الباحث في استنتاجاته هذه إلى درجة تبدو معها استنسابية ولا تمتّ إلى العلم بصلة، فقد كتب تعليقاً على مناقشات السيد فضل الله لأفكار السيد الطباطبائي». . وكأنما أراد مفسر (من وحي القرآن) أن يؤكد عظمة تفسيره من خلال إثبات أخطاء صاحب الميزان والنتائج التي توصل اليها» ص ١٩٨.

وبغض النظر عن الطابع اللّاعِلمي لمثل هذا الاستنتاج فقد فات

الباحث أن السيد فضل الله اشار في مقدمة تفسيره بطبعته الجديدة إلى سرّ اعتنائه بالميزان وأفكار السيد الطباطبائي، إذ كتب السيد فضل الله: «. . وهذا الكتاب قد صدر قبل أكثر من عشرين سنة وطبعت أجزاؤه عدة طبعات ونفذ من الأسواق منذ زمن وكثرت الحاجة اليه من قبل القرّاء والدارسين. . فعزمنا على إصداره في طبعة جديدة، بعد أن أعدنا النظر في بعض أبحاثه، مبدين بعض الملاحظات حولها، ومناقشين بعض الأفكار الواردة في بعض الدراسات التفسيرية والفكرية، ولا سيما ما ورد في تفسير الميزان للعلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي - رحمه الله - الذي هو من أفضل التفاسير الحديثة ثراءً وتنوعاً فكرياً وتفسيرياً، ولذا حاولت درس بعض أبحاثه درساً نقديا بنّاءاً على مستوى أسلوب التفسير أو مواد الفكر» (١).

ولا أعرف كيف استطاع الباحث قراءة نوايا السيد فضل الله، وكان الأجدر بالباحث أن يبتعد عن مثل هذه الاستنتاجات اللّاعِلميّة.

ومن استنتاجاته التي بالغ فيها الباحث زعمه «أن التفسير غارق بعبارات إنشائية زائدة يمكن التخلص والاستغناء عنها لتُبعد التفسير عن صفته غير العلمية التفسيرية وتحوله إلى كتاب ثقافي عام» ص ١٩٧ مضافاً إلى زعمه «وجود العبارات الغامضة والمبهمة التي أوقعت المفسر في تسجيل كثير من الاعتراضات من قبل الآخرين عليه. .» ص ١٩٧.

وكان على الباحث أن يشير إلى العبارات الغامضة هذه دون أن ينساق مع الاتهامات اللّاعِلميَّة. كما أنه لم يُشر إلى ما أسماه بالطابع الانشائي في تفسير «من وحي القرآن».

٥ - ويلاحظ إلى عدم الوضوح والغموض الذي إنتاب منهج الباحث ، وكمثال على ذلك أنه سجّل على السيد فضل الله ما أسماه

بالموقف الحاد تجاه الفلسفة والتي قد تخرّب ذهنية الفقيه، وقد لاحظ الباحث على هذا الموقف أنه يقلّل من أهمية الفلسفة كوسيلة للذود والدفاع عن العقيدة الاسلامية (ص ١٠٦)، ويبدو التهافت واضحاً في ملاحظة الباحث إذ أنه خلط وبشكل عجيب بين موقف السيد فضل الله من الفلسفة وتأثيرها في التفكير وتغلغلها على التفكير في المنهج الفقهي، وكذلك في المنهج التفسيري، لتحديد المراد من كلام الله، ولم يكن السيد فضل الله بوارد التقليل من دور الفلسفة في الدفاع عن العقيدة، بل ان الباحث نفسه نقل قبل عدة أسطر من ملاحظاته هذه عن السيد فضل الله الاشارة إلى هذا الدور. كما نقل الباحث نفسه عن السيد فضل الله عن مركز الفلسفة الاسلامية وموقعها من التفكير، وإنما أشكل السيد فضل الله على بعض المدارس الفلسفية (ص ١٠٥).

ويبدو هذا الخلط في ملاحظاته حول تحفظ السيد فضل الله على المنهج العلمي والقراءة العلمية للقرآن الكريم إذ يتساءل عن الفرق بين رفض المنهج العلمي في تفسير القرآن وبين قبول السيد فضل الله للمعطيات العلمية كما في الاستنساخ الذي نقل عن السيد أنه ينفرد في قبوله للاستنساخ مخالفاً أغلب العلماء والمفكرين والسياسيين (ص ١٥١ وما بعد).

وبغض النظر عن عدم الدقة في نقله رأي السيد فضل الله في الاستنساخ، فان هناك فرقاً بين المقامين، ففي قضية الاستنساخ يعطي السيد رأياً فقهياً كأي رأي تجاه قضية أو واقعة ما. أما في المنهج العلمي في تفسير القرآن فهو تحفظ يستند إلى عدم مشروعية قراءة القرآن وفقاً لمعطيات العلم.

هذه مجموعة ملاحظات كتبتها على البحث المشار اليه تتميماً

للفائدة دون أن ينقص ذلك من قيمة الجهد الذي بذله معدّ البحث.

يبقى أن أشير إلى أن دراستي هذه اقتصرت على كتاب «من وحي القرآن» دون أن أخذ بالاعتبار الكتب الأخرى التي صنّفها السيد فضل الله في (القرآنيات) وهي عديدة مثل (الحوار في القرآن) و(اسلوب الدعوة في القرآن) فضلاً عن المزاج الدائم الذي يتحلى به السيد فضل الله قرآنياً.

محمد الحسيني

٢٨ محرم الحرام/ ١٤٢٥

٢٠ آذار/ ٢٠٠٤م

الفصل الأول

التفسير

- مشروعية التفسير
- شروط المفسِّر

التفسير

التفسير - كعلم - يعنى بالقرآن الكريم، بوصفه كلاماً لله تعالى من حيث البحث عَن مدلول اللفظ، وعن إعجاز القرآن الكريم ومناحي إعجازه المختلفة، وعن أسباب نزول آياته، وعن الناسخ والمنسوخ منه، والخاص والعام، والمقيد والمطلق، فضلًا عن البحث في دوره لهداية البشرية وبناء المجتمع الإنساني، ويمكن أن نجمله في إيضاح مراد الله تعالى من كتابه العزيز.

وقد بدأ علم التفسير على يد النبي الأكرم محمد ﷺ وهو يعلم المسلمين ما نزل عليه من كلام الله تعالى ، فيما خصّ الإمام علياً عليه السلام بتعليم خاص، باعتباره الحجة من بعده على المسلمين وخليفته عليهم، ليتعاهد كتاب الله بالحفظ هو والأئمة عليهم السلام من بعده.

ثم تصدى العلماء من الرواة وغيرهم - على اختلاف طبقاتهم - وصولًا إلى الزمن الحاضر للعناية بكتاب الله تعالى شرحاً وإيضاحاً، وفق مناهج مختلفة إلى درجة بلغت معها كتب التفسير المئات إن لم تكن الآلاف.

وإذا كان قد اختلف العلماء في مدى شمول (التفسير) لحمل اللفظ على معناه الظاهر سواء كان ظهوره بسيطاً أو معقداً فإنهم لم يختلفوا في انطباق التفسير على اكتشاف المعنى الذي لا يقتضيه الاستعمال اللغوي بطبيعته، أي المعيَّن بالدليل الخارجي.

لكن ما استبعده العلماء من التفسير هو الظهور البسيط الذي

يتبادر إلى الذهن دونما جهد وبذل عناية، وإن كان يمكن شموله للظاهر ظهوراً بسيطاً بلحاظ الاختلاف المعرفي للأشخاص، لأنه قد يكون ظاهراً عند البعض، وقد لا يكون ظاهراً عند آخرين، فيحتاج إلى البيان والإيضاح، فيصدق عليه التفسير، فيما اختلفوا في الظهور المعقد المتكوّن من مجموعة ظهورات متفاعلة ليكون مشمولاً بالتفسير عند بعضهم دون البعض الآخر.

وقد يتعدى المفسّر من تفسير اللفظ إلى تفسير المعنى، فإنه قد يكون اللفظ واضح المعنى، ولكنه غير واضح على مستوى المعنى نفسه، كما في (اللوح) و(القلم) و(العرش) وغير ذلك مما ورد في الكتاب الكريم، مما يراد معرفة مصداقه الخارجي إن أمكن ذلك.

مشروعية التفسير:

لا شك أن عملية التفسير عملية مشروعة، وهي تندرج في إطار ما أسماه القرآن نفسه بـ (التدبر)، وهو ما حثّت عليه السنة القطعية أيضاً.

وسيأتي أن عملية (التدبّر) والفهم لا تتوقف على ضمائم خارجية عن القرآن - على حدّ تعبير السيد الطباطبائي - بل إنَّ القرآن يعني بعضه بتفسير بعضه الآخر، وإذا كان ثمة حاجة للرجوع إلى أخبار أهل البيت عليهم السلام فإنها وردت في مقام التعليم والإرشاد، ولذلك يلزم المفسّر أن يتأمل هذه الأخبار ليسترشد بها في إطار عملية تفسير كتاب الله الكريم.

وعليه فإن ما دلّ على مرجعية أهل البيت عليهم السلام لا ينافي هذه المقولة، لأن مرجعيتهم بما هي (عِدل) للقرآن الكريم تعني أن القرآن حجة مستقلة وهم (عِدل) له، من حيث إنه دل على حجية قول

الرسول ﷺ الذي دلّ قوله ﷺ على حجية قولهم وأنهم المرجع بعده.

وعليه فلا مانع من تفسير القرآن الكريم، بل إن تفسيره والتأمل فيه والتدبر بمعانيه والاستهداء بنوره واجب على المسلمين، وهو ما يفسّر اهتمام المسلمين على اختلاف مذاهبهم بالقرآن الكريم وتفسيره، وهو ما يكشف عن سيرة متشرعية يمكن أن تنسب إلى الشريعة نفسها وإلى تعاليم أئمة المسلمين عليهم السلام.

ومع ذلك فقد حاول بعض المفسرين أن يعطي لقضية التفسير بالرأي ومفهوم الرأي دائرة أوسع، بحيث تشمل كل جهد يمارسه الإنسان الباحث والمفسِّر العالم في فهمه للقرآن الكريم، ويفترض بأن هذه النتائج هي (رأي) لأنه انتهى إليها من خلال جهده ونظره، ومن ثم يكون مصداقاً لذلك الحديث «من فسّر القرآن برأيه فقد هوى». وبهذه الطريقة يحاول هذا البعض أن يعطّل البحث في القرآن الكريم وتفسيره، ويقول بأن الشيء الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه في تفسير القرآن إنما هو النصوص الواردة عن المعصومين.

وبغض النظر عما تستوجبه هذه المقولة من تعطيل لعملية التفسير والاستفادة من القرآن الكريم، فإنها غير صحيحة وليست صائبة - على الإطلاق - لأنها ترتكز على تفسير خاطئ لما يراد من (الرأي) مما وردت الإشارة إليه في الروايات.

ولأجل أن طريقة التفسير في حدود المأثور غير وافية بمتطلبات الإنسان المسلم، وليست قادرة على تفعيل القرآن في حياته بما هي عملية تفسير لفظي، فقد تعطلت عن التقدم بالتفسير وجمّدت النصوص في القوالب اللفظية، ولم يكن أي دور للاجتهاد المبدع وراء المدلول اللغوي واللفظي، في وقت دلّت الروايات على أن طاقات

القرآن الكريم لا متناهية وأنها لا تنفد - كما دل على ذلك القرآن - وبذلك تكون الطريقة المثلى للتفسير هي طريقة الاستنطاق على حد تعبير الشهيد الصدر- وهو مما ورد في ألسنة الروايات - في محاولة هادفة لتوظيف النص القرآني في سبيل الكشف عن حقيقة ما من الحقائق الكبرى في الحياة[١].

على أن هذا المفهوم - الاستنطاق - لا يعني التفسير بمعناه الاصطلاحي بما هو تفسير وكشف للمدلولات القرآنية، بل يتجاوزه إلى محاورة القرآن واستكشاف نظرية الإسلام بشكل عام من القرآن الكريم بما له من قيمومة على الحياة الإنسانية.

ونجد هذا المفهوم في تعبيرات السيد فضل الله فيما أسماه بالاستيحاء، مما سنشير إليه لاحقاً، وهو الذي طبع أسلوبه في التفسير، في محاولة لتفعيل القرآن الكريم في حياة المسلمين.

وفي شرح أسلوبه التفسيري يقول السيد فضل الله: «التفسير الذي يمكن أن ننطلق فيه إنه إيحاءات القرآن.. فالكلمة القرآنية ليست مجرد كلمة لها معنى في القاموس. (لأن) كل كلمة تحمل في كل تاريخ استعمالاتها الكثير من الإيحاءات، ولذلك تستطيع في كلمة واحدة أن تكتب ما شاء الله من الإيحاءات، لأن إيحاءات الكلمة غير معنى الكلمة، من هنا أعتقد إنه يجب أن نستوحي القرآن كما كان الأئمة عليهم السلام يستوحونه، فالإمام الباقر عليه السلام عندما يتحدث عن الآية القرآنية «ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» يقول عليه السلام: تأويلها الأعظم: من نقلها - أي النفس - من ضلال إلى هدى» وهذا لا يعني

(١) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص١٤ حتى ص٢٣، ط٢، بيروت، ١٩٨١، دار التعارف.

أن الإمام عليه السلام فسَّر كلمة الحياة بالهدى، وفسَّر كلمة الموت بالضلال، بل استوحى ذلك: أنك إذا أحييت إنساناً من ناحية مادية منعته من الموت وأنقذته، كنت كمن أحيا الناس جميعاً، لأنك ركّزت مبدأ الحياة.. والإمام عليه السلام تجاوز المعنى المادي وانطلق في إيحاءات المعنى في الضلال والهدى في الجهل والعلم، ولذلك أقول: «لا تفهموا القرآن من خلال القاموس، وإن كان للقاموس دوره، افهموا القرآن من خلال حركة الحياة»[1].

وفي هذا الإطار نفسه كتب الإمام الخميني: «ومن الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانية - يعني القرآن الكريم - : الاعتقاد بأنه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الشريف إلا بما كتبه المفسرون أو فهموه، وقد اشتبه على الناس التفكّر والتدبر في الآيات الشريفة بالتفسير بالرأي الممنوع، وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة واتخذوه مهجوراً بالكلية، في حال أن الاستفادات الأخلاقية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير فكيف بالتفسير بالرأي..»[2].

---

(١) السيد فضل الله، للإنسان والحياة، حوار السيد شفيق الموسوي، ص ٣١٠، ط بيروت، دار الملاك.

(٢) الإمام الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة، ص٣٣٣، ترجمة السيد أحمد الفهري، ط٢، بيروت، ١٩٨٦، مؤسسة الأعلمي.

شروط المفسِّر

ولكي يمارس المفسِّر مهمته ووظيفته في إيضاح كلام الله تعالى، والكشف عن مراده، لا بد أن يتوفر على عدة شروط تشكل الضمانة الأساسية لنجاح مهمته وعدم التورط بأخطاء جسيمة.

الشرط الأول:

يجب أن يتوفر المفسِّر على مستوى رفيع من الإطلاع على اللغة العربية ونظامها، لأن القرآن جاء وفق هذا النظام، لكن القدر اللازم توفره من هذا الشرط في تفسير القرآن يختلف من جانب إلى آخر، فقد لا يحتاج التعمق في أسرار اللغة العربية في الجوانب الفقهية بالدرجة نفسها التي يحتاجها في دراسة الفن القصصي في القرآن. في توضيح هذا الشرط يؤكد السيد فضل الله أن «من يريد أن يفهم القرآن يحتاج إلى ثقافة أدبية واسعة منفتحة على عمق الأساليب الأدبية في فهم المضمون هنا وهناك، ولا يمكن أن تفهم القرآن من خلال القاموس، لأن القاموس قد يضيء لك معنى الكلمة في بعض الاستعمالات ولكنه لا يعطيك حركية الكلمة في المضمون الفكري الذي يحتاج إلى الكثير من وعي الأسلوب ووعي القاعدة»[1] ولذلك يتجاوز فهم القرآن مرحلة فهم الكلمة في القاموس وإن كان للقاموس دوره.

ولذلك نبّه السيد فضل الله على ضرورة الابتعاد عن الفهم

(١) فضل الله، الندوة ج٣، ص٤٨٢، ط١ بيروت، ١٩٨٨، دار الملاك.

الحرفي - القاموسي للكلمة في مجال التفسير، حيث أشار في موارد عديدة إلى ذلك، وبالتحديد في مسألة ما عرف بتجسّم الأعمال يوم القيامة وحضورها في صورة حسية معينة، مما أستفيد من بعض الآيات كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ﴾ [الكهف: ٤٩] وغيره، فكتب السيد فضل الله معلّقاً على ذلك: «إننا نتصور أن الفكرة في بُعدها القرآني ناشئة من الاستغراق في حرفية النص بعيداً عن الأسلوب البلاغي الذي يتميز به القرآن في عملية التخيل الذهني الذي يوحي بالمعنى كما لو كان في عالم الحس، ليزيده عمقاً في الفكر وليتمثله الإنسان في صعيد النتائج الحاسمة كما لو كان ماثلًا أمامه»(١) كما أشار إلى أن الفهم الحرفي للكلمة يبتعد عن البلاغة اللفظية في آيات القرآن»(٢) وبذلك يبتعد المفسّر عن المراد والمقصود.

الشرط الثاني:

ولا بدّ للمفسِّر أن يحاول إلى أكبر درجة ممكنة - الاندماج كلياً في القرآن الكريم عند تفسيره، ويعني ذلك أن يدرس النص القرآني ويستوحي معناه دون تقييد مسبق باتجاه معيّن غير مستوحى من القرآن نفسه.

وبكلمة أخرى يفترض في المفسِّر أن لا يعمد إلى تفسير القرآن وهو معبأ بمواقف مسبقة تجاه النص، فيحاول أن يفسر النص ويطوّعه باتجاه متبنياته الفكرية، بل يجب أن يتصدى إلى التفسير وهو مجرد - مهما أمكنه ذلك - من آثار الانحياز الفكري والعاطفي لمتبنياته وأفكاره ومذهبه، وعندئذٍ يكون النص القرآني القاعدة الفكرية والاطار

(١) فضل الله، من وحي القرآن، ج٥- ص٣٣١، دار الزهراء، بيروت.
(٢) المرجع السابق ج١٠، ص٣٠.

المذهبي الذي يستهدى، بدلًا من أن يكون ملحقاً لهذا الاتجاه أو ذاك.

وفي هذا الصدد كتب السيد فضل الله: «.. ولهذا فإننا نحاول هنا أن نسجّل تحفظاً على الكثير من الأحكام المسبّقة التي تحاول تطويق النص القرآني ببعض الاستبعادات الذاتية.. فإننا نلاحظ أن تصورنا لشخصية الأنبياء يبدأ من القرآن، فيما يحدثنا عنهم من أحاديث ويسبغه عليهم من صفات، فهو المصدر الأساسي الأمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..»[١] وعندئذ سيكون النص القرآني هو المعيار الذي تعرض عليه الأفكار والخواطر والاحتمالات لا العكس.

وقد سجّل السيد فضل الله تحفظه على بعض الاتجاهات التي خلقت للأنبياء صورة غير متطابقة مع الجو القرآني ورأى فيها «إنحرافاً عن الخط القرآني الذي يرسم للناس في دراستهم لشخصية النبي»[٢].

الشرط الثالث:

أن يتوفر المفسر على (منهج عام) للتفسير، يحدد في ضوئه طريقته في التفسير، من حيث اعتماده على الظهور، واعتماده على الروايات والتراث الإخباري في حقل التفسير، ومن حيث اعتماده على القرائن العقلية وغير ذلك مما له دخل في تحديد المراد والمقصود.

ولذلك يجب أن يُنظر إلى أفكار المفسرين ونتائج تأملاتهم في إطار هذه الآليات، وفي ضوء مناهجهم العامة، بعيداً عن المناقشات

---

(١) المرجع السابق ج١٠، ص١٦٦.

(٢) المرجع السابق ج٩ ص١١٤.

العاطفية أو التي تستدعي إثارة العاطفة، أو الانسياق مع الأُنس الذهني ببعض الأفكار والمقولات التي ربما لم تثبت.

الفصل الثاني

المفسِّر

- بطاقة شخصية
- تفسيره - وصف عام
- مصادره في التفسير

المفسّر

السيد محمد حسين فضل الله المفسّر شخصية ذات أبعاد متنوعة، ولذلك لا يسع الباحث استيفاء هذه الشخصية حقها في بضع صفحات، وهو ما يفرض على الباحث التحويل على المصادر الأساسية التي يُرجع إليها لفهم شخصيته والتعرف عليها.

وإنما حرصنا على البحث في شخصيته إنسجاماً مع المنهج الذي دأب عليه الباحثون في الإشارة إلى البطاقة الشخصية للمفسّر.

- ولد السيد محمد حسين فضل الله سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م في العراق، وبالتحديد في مدينة النجف الأشرف حيث كان يقيم والده السيد عبد الرؤوف فضل الله أحد كبار علماء لبنان.

- التحق بالحوزة العلمية في النجف حوالي سنة ١٣٦٣ هـ وكان عمره آنذاك إحدى عشرة سنة، واستمرت دراسته حتى سنة ١٣٨٥ هـ.

- قضى معظم دراسته الأولى، فيما عرف بالمقدمات والسطوح ومنها العالية عند والده السيد عبد الرؤوف فضل الله.

- أكمل دراساته العليا في الفقه والأصول.. متتلمذاً على كبار علماء وفقهاء ومراجع النجف:

- السيد محسن الحكيم.
- السيد أبو القاسم الخوئي.
- السيد محمود الشاهرودي.
- الشيخ حسين الحلي.
- السيد محمد الروحاني.

- عرف السيد فضل الله بالذكاء منذ صغره وقد كتب الباحث علي الخاقاني مشيراً إلى ذلك: «والشاب الشاعر هو أنبه من رأيت من أقرانه الشباب الذين لم يقطعوا العقد الثاني، كما تجلى لي أنه أشعر من رأيت منهم أيضاً»[(١)].

- انخرط بالعمل السياسي والفكري مبكراً، وقد صحب الشهيد محمد باقر الصدر، والشهيد محمد مهدي الحكيم، والشيخ محمد مهدي شمس الدين، وآخرين..

- عاد إلى بلده ووطنه لبنان في العام ١٩٦٦، وكان قد قضى معظم شبابه في العراق.

تنوع ثقافته وتعدد مصادرها خلق له ذهنية للجمع بين ما هو أصيل وعميق، وبين ما هو معاصر وحديث..

- ألّف وصنف في الفكر والأدب والتفسير.

- درّس في الفقه والأصول، واختص بالتدريس على المستوى العالي، وهو ما يعرف بالبحث الخارج، وقد كُتبت وقُرِّرت محاضراته في الفقه وطبع معظمها.

- لا يزال مبلِّغاً للإسلام، يؤوم الناس بالصلاة جمعة وجماعة، ويحاضر فيهم.. وقد طبع المئات من محاضراته..

- عدا كتبه الفقهية، له كتب ذائعة الصيت، في مقدمها «خطوات على طريق الإسلام» «قضايانا على ضوء الإسلام« «مفاهيم إسلامية عامة»..

---

(١) الخاقاني، علي، شعراء الغَري، ج٨، ص٣٠٨، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات الإسلامية.

من وحي القرآن:

يقع تفسير (من وحي القرآن) في طبعته الثانية في أربعة وعشرين جزءً، وستزيد صفحاته وأجزاؤه في طبعته الثالثة، وذلك لأن هناك زيادات كتبها السيد المفسِّر لم تنشر في الطبعة الثانية، واقتصرت الزيادات في الطبعة الثانية على الأجزاء ذات الأرقام (١ - ١٠).

كانت أفكار السيد المفسّر عبارة عن محاضرات في التفسير يلقيها على مجموعة من المثقفين وكانت تهدف إلى خلق وعي قرآني يركّز الوعي الإسلامي على قواعد ثابتة، وتجعل من الكتاب الكريم (القرآن) منهاج حياة وحركة، ولذلك لم يشأ السيد المفسّر اعتبار تفسيره كتاب تفسير شأنه شأن غيره من التفاسير المعروفة.

ولذلك أسماه (من وحي القرآن) لأنه كان بصدد الوقوف على إيحاءات القرآن الكريم، للتواصل معه واستنطاقه من المؤمنين.

ولكن، من وجهة نظري إن عدم اعتبار السيد المفسِّر محاولاته في التفسير جزءً من حركة التفسير المألوفة، أعطت الانطباع للمتابعين بأنه لم يتوفر على التفسير بقدر ما كان يتوفر على البعد الثقافي والفكري استهداءً بالقرآن.

وإن لم يكن ثمة فرق بين الحالتين إلّا أن الشائع في الأوساط العلمية قائم على مثل هذا الفرق المفتعل.

ومهما يكن من أمر، فقد عكف السيد المفسّر على تجاوز هذه العقبة، في مراجعة جديدة لتفسيره (من وحي القرآن) بما يجعله أحد أهم التفاسير في هذا القرن.

بصدد تقييم تفسير (من وحي القرآن) كتب أحد أبرز المهتمين بعلوم القرآن وتفسيره: ما نصه «من وحي القرآن - تفسير تربوي

اجتماعي شامل، ويُعد من أروع التفاسير الجامعة من روح حركية نابضة بالحيوية الإسلامية العريقة، أنطلق فيه المؤلف، وهو السيد محمد حسين فضل الله، من ألمع علماء الإسلام في القطر اللبناني يعمل في إحياء الجو القرآني في كل مجالات الحياة المادية والمعنوية، نظير ما صنعه سيد قطب في تفسير «في ظلال القرآن» مضيفاً عليه تعاليم صادرة عن أهل البيت في تربية الجيل المسلم، ومتناسباً مع كل دور من أدوار الزمان.. ومن ثَمَّ غلب على التفسير الطابع التربوي، بما لكلمة التربية من معنى اصطلاحي، يتجسد في الارتقاء بالإنسان في كل مجالاته المختلفة ويسعى إلى إحداث عملية التكيّف والتفاعل بين الكائن الآدمي وبيئته الطبيعية والاجتماعية لتحقيق خلافة الله في الأرض، وهكذا يمتاز هذا التفسير بأسلوبه الأدبي الرائع، مع المزج بينه وبين الأسلوب العلمي المتأدب النزيه، مما يجعل الكتاب رائعاً يجذب القارئ إليه جذباً ويجعله يتفاعل معه مغرماً به..»[1].

---

(١) معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون، ج٢، ص٤٧٤، ط، إيران الجامعة الرضوية للعلوم الإسلامية.

من وحي القرآن ـ الوصف العام

في طبعته الثانية يمكن وصف التفسير كالتالي:

- يفتتح السيد المفسّر السورة بوصف مجمل يحدد فيه المعالم الأساسية والأفكار والرؤى الرئيسة التي تتقوم بها وتشير إليها الآيات التي تتكون وتتألف منها السورة.

- يشير إلى معاني المفردات التي تفتقر إلى توضيح، كما هو شأن التفاسير المشهورة التي دأبت على المنهج المذكور. ولم يكن يشير السيد المفسّر إلى معاني المفردات في الطبعة الأولى.

- وقف السيد المفسّر عند أسباب النزول في الآيات التي ورد بخصوصها شيء من الأخبار مما تناقله الرواة، وهو في الغالب يسجل ملاحظاته عليها في تفسيره، وقد مرّ منا الإشارة إلى ذلك.

- حرص السيد المفسّر على تتبع آراء المفسرين، وخصّ العمالقة والمشهورين منهم، ومن له رأي خاص جدير بالتأمل والدراسة، ولم يِفُته تسجيل ملاحظته بالموافقة أو المخالفة عليهم.

وقد توقف كثيراً عند تفسير (الميزان في تفسير القرآن) للمفسّر العلامة الفيلسوف السيد محمد حسين الطباطبائي، وذلك لأنه من وجهة نظر السيد فضل الله - «من أفضل التفاسير الحديثة ثراءً وتنوعاً فكرياً وتفسيرياً»(١) ولذلك حرص السيد فضل الله على «درس بعض

(١) من وحي القرآن، ج١، ص٢٠.

أبحاثه درساً نقدياً بنّاءً على مستوى أسلوب التّفسير أو مواد الفكرة[١] دون أن يعني ذلك التقليل من شأن التفاسير الأخرى وستأتي الإشارة إلى مصادره في التفسير إليها.

- دأب السيد فضل الله على ربط الحاضر بالماضي من خلال تفعيل القرآن الكريم في حياة الإنسان المسلم وتلمس الحلول من خلال القراءة الواعية لأزمات المجتمع الإنساني مما أشار إليه القرآن الكريم.

ولذلك حرص على وضع عنوان بارز مثل (ماذا نستوحي من هذه القصة) أو ما أشبه ذلك.

- على الرغم من غلبة الطابع التربوي/ الحركي الذي كرّسه السيد فضل الله في تفسيره لاستيحاء القرآن واستنطاقه فقد ضمّ تفسير (من وحي القرآن) أبحاثاً مهمة وعميقة ومتنوعة وعلى مستويات عدة:

البحث العقائدي:

حيث عالج السيد المفسِّر أهم الأبحاث العقائدية مثل:

- المعجزة.

- النبوة ودور الأنبياء ومركز الأنبياء في الفكر الإسلامي من خلال القرآن.

- العصمة ومما يتصل بها من تفاصيل.

- الولاية التكوينية مما أدعي وقوعه للأنبياء والأوصياء.

---

(١) المرجع السابق. ج٧ ص٧٣، ١٠٦، ١١٢، ٢١٧، ج١٥، ص٩٣، ١٠٠، ١٠٩، ١٤٣، ٢٨٤، ج١٤، ص٤١، ٧١؟، ج١٧، ص٢٣٤.

- الشفاعة وتكييفها.

فضلًا عن عدد كبير من الاعتقادات التفصيلية التي ترد الإشارة إليها في القرآن الكريم وعالجها المفسرون.

البحث الفقهي:

وإن لم يكثر المفسرون البحث الفقهي التفصيلي في التفسير - عدا المخصص منها لما يعرف بالتفسير الفقهي - فقد حرص السيد فضل الله على البحث ولو تفصيلًا أو إجمالًا فقهياً لعدد من المسائل الفقهية من قبيل:

- البحث في تكييف عمل المصارف واتصاله بالربا، كما يبدو ذلك في مناقشاته لرأي الدكتور معروف الدواليبي.

- تحريم المأكول والمطعوم ومعالجة الحصر الوارد بالمحرمات الأربعة.

- الحجاب وستر المرأة، وأحكام النظر والستر.

- دخول المسجد، والمنع من دخولها للمحدث بالأكبر.

- الغناء والاستدلال على تحريمه بالقرآن وعلاقته بالاستدلال على الحرمة بالسنّة.

البحث الفكري:

وهو الأهم والأكثر عمقاً وتفصيلًا، خاصة وأن السيد المفسِّر هو الأبرز على الساحة الفكرية والثقافية بلا منازع ولذلك جاءت أفكاره في هذا المجال على درجة كبيرة من المصداقية والدقة والاتزان.

وقد ظهر ذلك في معالجاته الكثيرة لأهم القضايا والأكثر حساسية وإشكالية، كما في الحوار وأسلوب مواجهة الآخر، وموقع

الآخر في الفكر الإسلامي، ودور الإنسان وموقعه في البناء الحضاري عموماً، ومركز المرأة ودورها في المجتمع، والإجابة عن التشريعات الإسلامية التي توحي بالسلبية.

كما عالج قضايا الحرية والإكراه والقهر، فضلًا عن معالجاته المتنوعة في تفسير بعض التشريعات من قبيل الموقف من الارتداد، والموقف من تشريع عقوبة الإعدام..

ويمكن القول: إن الأبحاث التي تندرج في الإطار الفكري لا يمكن للباحث حصرها ولا تسعه الإشارة إليها، لأنها كثيرة جداً، وقد دأب السيد المفسّر على معالجتها كلما سنحت له الفرصة وهو بصدد ما يمكن أن يكون مناسباً للتفسير وعلى صلة به ومما يتصل بالقرآن الكريم..

علوم القرآن:

حيث عالج السيد المفسّر عدداً مما يندرج تحت ما يُعرف بعلوم القرآن، من قبيل: النسخ، صيانة القرآن من التحريف، التأويل، المحكم والمتشابه، القصة في القرآن.

مصادره في التفسير:

بالرجوع إلى مصادر تفسير (من وحي القرآن) يمكن تصنيفها إلى:

❁ **المصادر الحديثية**: ونريد بها المصادر التي تعنى بالرواية والخبر، سواء ما كان منها المروي من طرق أهل البيت عليهم السلام أو رواتهم، أم ما كان منها مروياً عن أهل السنة.. ومنها ما كان في التفسير:

- الكافي، محمد بن يعقوب الكليني.
- علل الشرائع، علي بن الحسين الصدوق.
- معاني الأخبار، علي بن الحسين الصدوق.
- أمالي الصدوق، علي بن الحسين الصدوق.
- المحاسن، أحمد بن محمد بن خالد البرقي.
- عيون أخبار الرضا، علي بن الحسين الصدوق.
- تهذيب الأحكام، محمد بن الحسن الطوسي.
- مناقب آل أبي طالب، محمد بن علي ابن شهرآشوب.
- تفسير القرآن، (تفسير القمي) علي بن ابراهيم القمي.
- تفسير القرآن، (تفسير العياشي)، محمد بن مسعود العياشي.
- البرهان في تفسير القرآن، هاشم البحراني.
- نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي.
- أسباب النزول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري.
- تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة (الوسائل) محمدبن الحسن الحر العاملي.
- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي.
- المصادر التفسيرية، ونعني بها ما يندرج في تفسير القرآن، مما كان ينتمي إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام أو مدرسة أهل السنة:
- الكشاف في تفسير القرآن، أبو القاسم الزمخشري. تفسير القرآن الكريم، محمد بن جرير الطبري.

- معجم مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني.
- تفسير القرآن الكريم (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.
- التفسير الكبير (تفسير الفخر الرازي)، محمد بن عمر بن حسين المشهور بفخر الدين الرازي.
- المنار في تفسير القرآن، محمد رشيد رضا.
- مجمع البيان، أبو علي الفضل الطبرسي.
- البيان في تفسير القرآن، أبو القاسم الخوئي.
- الكاشف في تفسير القرآن، محمد جواد مغنية.
- تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت.
- في ظلال القرآن، سيد قطب.
- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي.
- الأمثل في تفسير القرآن، ناصر مكارم الشيرازي.

وهناك مراجع ومصادر أخرى كثيرة، اكتفينا بالإشارة إلى المهم منها والأكثر شهرة في الأوساط العلمية.

ويحسن أن نشير إلى الشخصية العلمية المستقلة للسيد المفسِّر تجاه اجتهادات المفسرين، إذ برز الطابع الشخصي بوضوح في موقفه من الاجتهاد الآخر في مناقشة الآراء والاجتهادات تأييداً أو نقضاً وفقاً لما يرتئيه من مقاييس ومعايير علمية تحكم البحث المعرفي والعلمي.

ولذلك تجلّت أفكاره وآراؤه بقوة، ودونما تقليد أو تبعية ذاتية، لهذا الاتجاه أو ذاك.

الفصل الثالث

منهج التفسير عند السيد فضل الله

بصدد تحديد الملامح العامة لمنهج السيد فضل الله في التفسير ومن خلال قراءة تفسيره «من وحي القرآن» أمكن تشخيص مقولات أربع شكلت أهم العناصر التي يقوم عليها التفسير، وهي:

أولاً: استقلالية القرآن

ثانياً: الظهور القرآني

ثالثاً: السياق القرآني

رابعاً: الاستيحاء

المقولة الأولى

استقلالية القرآن

ونعني بالعنوان المشار إليه آنفاً أن القرآن الكريم (نص) يمكن فهم المراد من ألفاظه وتحديد معناه، من دون الرجوع - من حيث المبدأ - إلى نص آخر، لأنه نص مستقل بذاته.

وبإزاء هذه المقولة تقف مقولة أخرى تعتبر القرآن (نصاً) لا يمكن فهمه والتعرف عليه ما لم يرجع إلى نص آخر أو مرجع آخر يحدد المراد منه ويفك رموزه ومغاليقه.

وقد اعتمدت هذه المقولة على ما روي من تحريم التفسير بالرأي أو ما يقرب من ذلك.

وفي إطار المروي عن أهل البيت عليهم السلام يمكن أن نشير إلى طوائف ثلاث أُستند إليها في دعم هذه المقولة، أعني الأخيرة.

الطائفة الأولى:

وهي مجموعة الروايات الدالة على اختصاص الأئمة بفهم القرآن الكريم، وأنه - أي القرآن - لا يفهمه إلا من خوطب به، وهم الأئمة المعصومون عليهم السلام.

فقد روي عن زيد الشحّام عن الباقر عليه السلام: «.. ويحك يا قتادة! إنما يعرف القرآن من خوطب به»[1].

---

(١) الحر العاملي، محمد ين الحسن، وسائل الشيعة، كتاب الشيعة، كتاب القضاء، باب ١٣ من أبواب صفات القاضي حديث ٢٥.

وفي رواية المعلى بن خنيس عن الصادق عليه السلام: « . . انه ليس شيء أبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن . . »[١]. وروايات قريبة من ذلك وهي روايات إن تمت - سنداً ودلالة - فهي دالة على إسقاط الدلالات القرآنية، ولا يكون القرآن - عندئذ - حجة في شيء، بل لا بد من الرجوع إلى الأئمة عليهم السلام الذين خوطبوا بالقرآن واختصوا بفهمه لتوضيحه للناس وتحديد مراد الله تعالى.

الطائفة الثانية:

وهي عبارة عن الروايات الدالة على حرمة الاستقلال في فهم القرآن واستنباط الحلال والحرام من آياته، بل يلزم الرجوع في ذلك إلى الأئمة عليهم السلام.

الطائفة الثالثة:

وهي الأخبار الناهية عن تفسير القرآن بالرأي، إلى درجة اعتبر معها كما في بعض الروايات أن «من فسّر القرآن برأيه وأصاب الحق فقد أخطأ» فضلًا عن حرمة التفسير الذي لا يصيب المعنى والمراد.

إلّا أن ما استدل عليه من الروايات على اختلاف ألفاظها واتحاد مضامينها في الجملة غير تام ولا يمكن أن يسلم من النقض، سواء من حيث التشكيك في صحة أسانيد هذه الروايات، أم في سلامتها من حيث الدلالة، بل إنَّ بعضها أجنبي عن إثبات المطلوب، كما هو في الطائفة الثانية من الأخبار، إذ أنها صحيحة سنداً في الجملة ومضموناً أيضاً، ولكنها أجنبية لجهة عدم الخلاف بين العلماء في حرمة التفسير

(١) المرجع السابق حديث ٣٨.

واستنباط الحلال والحرام من دون الرجوع إلى الروايات(١).

ولذلك اتفق معظم العلماء المسلمين على اختلاف مذاهبهم على جواز التفسير من دون الرجوع إلى نص آخر، ما لم تكن هناك ضرورة لذلك لتحديد المراد، كما في حالة الإجمال أو احتمال التخصيص والتقييد..

وفي هذا الإطار كتب الشيخ الطوسي في مقدمة كتابه (التبيان في تفسير القرآن) محدداً موقفه النظري من هذه المسألة: «واعلم أن الرواية ظاهرة في أخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبي ﷺ وعن الأئمة عليهم السلام الذين قولهم حجة كقول النبي ﷺ، وأن القول فيه بالرأي لا يجوز. وروى العامة ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: (من فسر القرآن برأيه وأصاب الحق فقد أخطأ)، وكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول في القرآن بالرأي: كسعيد بن المسيب وعبيدة السلماني، ونافع، ومحمد بن القاسم، وسالم بن عبد الله، وغيرهم. وروي عن عائشة أنها قالت: لم يكن النبي ﷺ يفسر القرآن إلا بعد أن يكون في كلام الله تعالى وكلام نبيه تناقض وتضاد. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال: ﴿فيه تبيان كل شيء﴾ وقال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] فكيف يجوز أن يصفه بأنه عربي مبين، وأنه بلسان قومه، وأنه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء؟ وهل ذلك إلا وصف له باللغز والمعنى الذي لا

---

(١) للتوسع راجع: كتابنا: مطارحات في قضايا قرآنية، ص٦١ وما بعدها، ط١، ٢٠٠٠م، بيروت، دار الملاك.

يفهم المراد به إلا بعد تفسيره وبيانه؟ وذلك منزه عن القرآن. وق مدح الله أقواماً على استخراج معاني القرآن فقال. . . «لعلمه الذير يستنبطونه منهم» وقال في قوم يذمهم حيث لم يتدبروا القرآن، ول يتفكروا في معانيه: «أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوبِ أقفالها» وقال النبي ﷺ: «(إني مخلف فيكم الثقلين، كتاب الله وعترتي أهل بيتي فبيّن أن الكتاب حجة، كما أن العترة حجة، وكيف يكون حجة ما لا يفهم به شيء؟ وروي عنه عليه السلام أنه قال: (إذا جاءكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالف فاضربوا به عرض الجدار) وروي مثل ذلك عن أئمتنا عليهم السلام. وكيف يمكن العرض على كتاب الله، وهو لا يُفهم به شيء؟ وكل ذلك يدل على أن ظاهر هذه الأخبار متروك. .»(١) ثم يحاول الشيخ الطوسي الجمع بين هذه الأخبار وبما لا يتناقض مع كون الكتاب العزيز واضحا بيّناً يمكن فهمه من دون توقفه على الرجوع إلى مرجع آخر ونص آخر.

وفي هذا السياق نفسه كتب السيد محمد حسين الطباطبائي في تقرير هذه المسألة مؤكداً أن القرآن الكريم «لا يحتاج في أداء مقاصده إلى أية ضمائم خارجية، وأن المنظور الابتدائي والنهائي لكل آية يمكن بلوغه والتعرف عليه بشكل واضح من خلال الآية نفسها أو بضمّها إلى الآيات الأخرى ذات الصلة بالموضوع»(٢).

---

(١) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج١، ص٤ وما بعدها، ط، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة (نص الحوار مع المستشرق كوربان)، ص٥٩، ط١، ١٤١٦ هـ، قم، مؤسسة أم القرى.

وفي موضع آخر كتب السيد الطباطبائي: «القرآن الكريم كلام كسائر ما يتكلم به الناس، ويدل دلالة واضحة على معانيه المقصودة وما يرومه من بيان المفاهيم والمعطيات، وليس فيه خفاء على المستمعين لآياته، ولم نجد دليلًا على أنه يقصد من كلماته غير المعاني التي ندركها من ألفاظه وجمله. أما وضوحه في دلالته على معانيه فلأن أي إنسان عارف باللغة العربية بإمكانه أن يدرك معنى الآيات الكريمة كما يدرك معنى كل قول عربي.. وأما ما ذكرناه من أنه لا دليل خارجي على نفي حجية ظواهر القرآن، فلأننا لم نجد هكذا دليل لذلك، إلّا ما ادعاه بعض من أننا - في فهم مرادات القرآن - يجب أن نرجع إلى ما أُثر عن الرسول ﷺ أو ما روي عن أهل بيته المعصومين عليهم السلام. ولكن هذا إدعاء فارغ لا يمكن قبوله، لأن حجية قول الرسول والأئمة عليهم السلام يجب أن تفهم من القرآن الكريم، فكيف يتصور توقف حجية ظواهره على أقوالهم عليهم السلام، بل نزيد على هذا ونقول: إن إثبات أصل النبوة يجب أن نتشبث فيه بذيل القرآن الذي هو سند النبوة كما ذكرنا سابقاً، وهذا الذي ذكرناه لا ينافي كون واجب الرسول والأئمة عليهم السلام بيان جزئيات القوانين وتفاصيل أحكام الشريعة التي لم نجدها في ظواهر القرآن، وأن يكونوا مرشدين إلى معارف الكتاب كما يظهر من الآيات..»(١).

ولتأصيل هذه المقولة - استقلالية القرآن - كتب السيد فضل الله «.. القرآن ليس رسالة خاصة من الله إلى رسوله يشتمل على الرموز الخفية التي يفهمها المرسل إليه دون الناس، كما يحدث في الرسائل

(١) الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الإسلام، ترجمة أحمد الحسيني، ص٣٥ وما بعدها، ط طهران، ١٤٠٤.

الخاصة، بل هو كتاب هدى للناس كافة، فلا بد من أن يكون الرمز الذي يشتمل عليه، مما يتصل مضمونه بجميع الناس..»[(١)].

وفي مقام الرد على دعوى أن في القرآن الكريم منطقتين أحدهما سرّية لا يمكن فهمها للعامة، وأخرى منطقة يتاح للناس إدراكها كتب السيد فضل الله: «ولكن القرآن يتحدث عن الناس كلهم، عندما يتحدث عن الآيات التي بيَّنَها لهم: لعلهم يتذكرون، ويتفكرون، ويعقلون، فلا يختص بجماعة دون جماعة، مما يفرض أن الفكرة الظاهرة من القرآن هي الفكرة التي يريد الله للناس أن يحملوها ويتحركوا في تفاصيلها الفكرية والعملية، مع اختلافهم في طبيعة المستوى الذهني في استيعاب خصائصها كغيرها من الكلمات العربية البليغة التي يختلف الناس في فهم مداليلها تبعاً لاختلاف ثقافاتهم»[(٢)].

وفي موضع آخر، وبالتحديد في تفسير قوله تعالى: (أفلا يتدبرون القرآن) كتب السيد فضل الله تأكيداً لاستقلالية القرآن ووضوحه بحيث يمكن فهمه دونما رجوع إلى الأخبار كما قد يقال: (أفلا يتدبرون القرآن) ليتعمقوا في مفاهيمه وينفتحوا على أحكامه، ويتعرفوا من خلاله على الخطوط الفاصلة بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان ليلتزموا الخط القرآني في قضايا العقيدة والحياة؟! وما المانع أن يتدبروه وهم يملكون معرفة اللغة التي نزل بها والقدرة على الفهم.. والظاهر كما قال في مجمع البيان «إن هذه الآية دالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع» فان الله يدعو إلى فهم القرآن وتدبّره حتى يكتشف الناس فكره

---

(١) فضل الله، محمد حسين، تفسير من وحي القرآن، ج٢٠، ص١٣٩، ط٢، ١٩٩٨، بيروت، دار الملاك.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٩.

وشريعته ومنهجه في الحياة، وليست هذه الأقوال التي تعزل القرآن عن الفهم العام للناس، إلا لوناً من ألوان تجميد القرآن في الثقافة العامة، وإبعاد الناس عن اكتشاف الزيف الذي يحشده البعض في المضمون التفسيري له»[١].

وبعبارة موجزة كتب السيد فضل الله: «إن الآيات القرآنية لا تنطلق في خط التعقيد اللفظي والمعنوي أو الإشارة الرمزّية التي لا توحي للناس بالوضوح في الفهم»[٢].

وتعني مقولة استقلال القرآن الكريم - عند السيد فضل الله - أنه نص متكامل لا يتوقف فهمه على نص آخر، بل إن بعضه يضيء البعض الآخر ويحدد المراد النهائي منه فكتب في ذلك: «ولعل الدراسة الواعية الدقيقة للقرآن في كل موضوعاته الفكرية والعقيدية والتشريعية، ومفاهيمه العامة المنفتحة على حقائق الكون والحياة والإنسان وعالم الغيب والشهادة، توحي للقارئ الباحث بأن آيات القرآن تتكامل في بناء الفكر الإسلامي. فإذا كانت هذه الآية توحي بمعنى في بادئ الأمر فان الآية الأخرى تفسرها لتلتقي به في معنى واحد، وإذا جاء الحكم الشرعي في بعضها عاما أو مطلقاً، فإننا نلتقي في بعضها الآخر بما يخصصه أو يقيده فلا يجد الإنسان فيه اختلافاً بين أفكاره أو تنافراً بين آياته أو غموضاً في معانيه، بل هو الوضوح الذي يستمد طبيعته من طبيعة الألفاظ في معانيها الموضوعة، ومن عمق التدبر في أغوارها العميقة، ومن المقارنة الموضوعية بينها في عملية التكامل في حركة الأفكار في بنيتها الأساسية، وهذا هو الذي

(١) المرجع السابق، ج٢١، ص٧١، ٧٢.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٩. المرجع السابق، ج٢١، ص٧١،٧٢.

أراده الله من عباده في الأمر بالتدبر للقرآن في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فإن إدراك هذه الحقيقة تفرض على الإنسان أن يدرس القرآن كله - في جميع آياته وموضوعاته - ليأخذ الفكرة الكاملة، وأن يتعمق في دراسته بعيداً عن القراءة السطحية، ليعرف كيف يجعل الآية هنا، مفسرة للآية هناك، أو يأخذ من هذه الآية جانباً من المعنى ويأخذ من الأخرى جانباً آخر، وذلك من خلال الثقافة الواسعة العميقة في اللغة العربية التي تربي له ذوقه اللغوي، بحيث يفهم المعاني من الألفاظ، من خلال أسرار اللغة في دقائقها وتنوعاتها، ومن خلال الذهنية المنفتحة على حقائق الكون والحياة والإنسان، الأمر الذي يملك معه فهم القرآن في الجانب اللغوي والفكري والعملي معاً في كل آياته المحكمة والمتشابهة»[١].

هذا المنهج في تفسير القرآن الكريم ترك بصماته واضحة في محاولات السيد فضل الله لتفسير القرآن، إن على المستوى النظري وهو يؤسس لنفسه نهجه الخاص به، أو على المستوى العملي وهو ينهض بهذه المحاولة هنا وهناك، وفي هذه الآية، والآية الأخرى.

وإذا كان السيد فضل الله يتفق مع عدد من المفسرين - وربما هم الأكثر والمعظم - في هذا الخيار التفسيري وقراءة القرآن في ضوء هذا الخيار وهذا المنهج، فإنه لاحظ على بعضهم الخروج عن هذا المنهج على المستوى العملي والتطبيقي.

وفي هذا السياق يمكن أن نشير إلى ملاحظاته التي سجّلها على

---

(١) المرجع السابق، ج٢١، ص٧١، ٧٢.

السيد الطباطبائي بهذا الخصوص وهو الذي يتفق معه في أصل هذا الخيار وهذا المنهج.. ونكتفي بالإشارة إلى نموذجين:

- في مقام تفسير المراد من الحروف المقطعة في القرآن الكريم كتب السيد الطباطبائي في وجه من وجوه التفسير بما محصله: « ويستفاد من ذلك أن هذه الحروف رموز بين الله سبحانه وتعالى وبين رسوله خفية عنا لا سبيل لإفهامنا العادية إليها إلا بمقدار أن نستشعر أن بينها وبين المضامين المودعة في السور ارتباطاً خاصاً» فعلّق السيد فضل الله على ذلك: «ولعلنا نلاحظ أن هذا الوجه - مع طوافته - لم يستطع أن يعطي معنى لهذه الحروف، يدخل في التصور التفصيلي الذهني، كما أننا قد نجد مضامين السور المشتملة على بعض هذه الحروف المشتركة في سورة أخرى لم تبدأ بهذه الحروف، أما الحديث عن الرمز الذي يختفي في داخل هذه الحروف، في ما يمثله من معنى بين الله وبين رسوله، مما لا تصل إفهامنا إليه فقد لا نستطيع التسليم به، لأن القرآن ليس رسالة خاصة من الله إلى رسوله ليشتمل على الرموز الخفية التي يفهمها المرسل إليه دون الناس، كما يحدث في الرسائل الخاصة بل هو كتاب هدى للناس كافة، فلا بد من أن يكون الرمز الذي يشتمل عليه مما يتصل مضمونه بجميع الناس..»(١).

- وفي موضع آخر، وبالتحديد في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] كتب السيد الطباطبائي في تفسيره: «غاية الجعل وغرضه - يقصد للتعقل - وجعل رجاء تعقله غاية للجعل المذكور يشهد بأن له مرحلة من الكينونة

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١٣٩.

والوجود لا ينالها عقول الناس، ومن شأن العقل أن ينال كل أمر فكري، وإن بلغ من اللطافة والدقة ما بلغ، فمفاد الآية أن الكتاب بحسب موطنه الذي له في نفسه أمر وراء الفكر أجنبي عن العقول البشرية، وإنما جعله الله قرآناً عربياً وألبسه هذا اللباس رجاء أن تستأنس به عقول الناس فيعقلوه والرجاء في كلامه تعالى قائم بالمقام أو المخاطب دون المتكلم...».

فكتب السيد فضل الله في التعليق: «ولكن التأمل في هذه الآية لا يدل على ما ذكره بل الظاهر منها أن الله قد أنزله كتاباً عربياً بلغتكم لتفهموه وتعقلوه، كما يفهم أهل كل لغة الكلام النازل عليهم بهذه اللغة باعتبار وضوح اللغة التي يمنح الإنسان وضوحاً في المطلب»[١].

وفرض أن «القرآن الكريم واضح بيِّن لا يعني الاقتصار في تفسيره على ما يعيشه المفسِّر وما يحيط به من معطيات حسية وخارجية، ولذلك كتب السيد فضل الله: «ولا نستطيع أن نحمل القرآن على معنى غامضٍ خفي في علم الله، وذلك لا من جهة أننا نريد أن نفسّر القرآن تفسيراً حسياً مادياً كما يفعل الحسيون، بل من جهة أنه لا دليل على ذلك في ما حاول بعض المفسرين أن يقيم الدليل عليه، مما لا مجال للخوض في النقاش فيه»[٢]. بل إنَّ القرآن بيّن في نفسه كما قرره السيد فضل الله، وعندئذ فلا تبقى ثمة فرصة للتخمين بعيداً عن الحجة الشرعية.

ولكن، يحسن التذكير بأن القول باستقلالية القرآن الكريم ووضوحه وكونه بيّناً لا يعني نفي الصعوبات التي تكتنف محاولات

---

(١) المرجع السابق، ج٢٠، ص١٢١- ٢١٣.
(٢) المرجع، ج٤، ص١٧٦.

المفسرين في فهم المراد من النص القرآني، خاصة على مستوى تحديد المعنى من حيث واقعه ومن حيث مصداقه الحقيقي وأن كان المعنى واضحاً على المستوى اللغوي، وهذا ما يلاحظه الباحث في تفسير (من وحي القرآن) حيث توقف السيد فضل الله في تحديد المعنى النهائي لعدد من الآيات، يمكن أن نشير إلى بعض النماذج في هذا السياق.

- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧] فقد نقل في تفسير (المثاني) أن يكون المراد التكرير أو الإعادة لتكرار المعاني في آيات القرآن، أو لتثنية قراءة الحمد في الصلاة، أو لكون الآيات يبين بعضها بعضاً.. وكتب السيد فضل الله معقّباً: «وقد لا يستطيع الإنسان الجزم بوجه معيّن من هذه الوجوه المحتملة مما يجعل من الكلمة مجملة، لا سيما إذا أردنا تطبيقها على سورة الفاتحة أو على السور السبع الطوال، فلنترك أمرها لله»(١).

- في تفسير المراد من الكلمات التي أشير إليها في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] وتعليقاً على ما ذكره السيد الطباطبائي كتب السيد فضل الله: «ومهما يكن من أمر، فإن الله قد أبهم هذه الكلمات ونكّرها للإيحاء بأن القضية هي قضية لطف الله بآدم في توجيهه نحو التوبة وتقريبه إليه، للتدليل على كرامته عنده، بخلاف إبليس الذي سلب الله عنه رحمته وأبعده عن مواقع القرب عنده، فلنجمل ما أجمله الله، ولنقف في التفاصيل على ما تثبت لنا حجيته، لأن أمر تفسير كلام الله من القضايا الكبيرة التي لا مجال للتساهل فيها بالاعتماد على رأي واحد»(٢).

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٦.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٥٦.

- في تفسير ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] نقل السيد فضل الله عدة تفسيرات مختلفة في هذا الموضوع الشائك فقهياً ثم عقّب: «.. ولا يملك الإنسان حجة واضحة في الجانب التفسيري للآية بين هذين الاتجاهين..».

- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١-٢] نقل عدة أقوال في تفسير هذه الليالي من دون أن يرجّح قولًا على آخر[١].

الرواية والقرآن:

إن اعتبار القرآن الكريم (نصاً) مستقلّا لا يتوقف معرفة المراد من كلماته وجمله على (نص) آخر لا يعني التقليل من شأن الرواية والخبر، الذي ادعى البعض أنه لا يجوز التفسير إلا به وبواسطته.

وفي سياق الحديث عن موقع القرآن الكريم كمصدر رئيسي للمعرفة الإسلامية كتب السيد فضل الله: «.. وفي ضوء هذا فإنه - يعني القرآن - يمثل المصدر المعصوم للتصور الإسلامي الصافي لكل مجالات الحياة التشريعية والفكرية والعملية، ويحدد لنا المفاهيم الأصلية التي ترتكز عليها الشخصية الإسلامية، ولا نريد لهذه الكلمة أن توحي بالانتقاص من قيمة السّنة كمصدر ثانٍ أساسي للفكر والشريعة الإسلاميين فإن الحديث يعتبر الصورة التفصيلية للمفاهيم القرآنية العامة، فهو الذي يضع النقاط على الحروف، وهو الذي يحدد للقواعد العامة مسارها الفكري والعملي، ولكن القرآن يختلف عن السنّة في أن (سنده) لا يحتاج إلى إثبات علمي يبحث فيه العلماء وثاقة

(١) المرجع السابق، ج٢٤، ص٢٤٠.

الراوي وأمانته ليحكموا من خلاله بصحته، لأن سنده قطعي، بينما نجد أن سند الحديث الذي يثبت لنا أن النبي ﷺ قال هذا أو فعل هذا ليس بهذه المثابة من القوة، فلا بد له من إثبات قد يختلف العلماء في أمره كما يختلفون في كل قضية اجتهادية، ولذلك فإن التأكيد على الاهتمام بالقرآن يعمل على صنع الذهنية القرآنية الصافية التي نستطيع من خلالها أن نكتشف زيف الأحاديث الموضوعة من خلال اكتشاف زيف المفاهيم التي عالجتها عندما نعرضها على القرآن الكريم انطلاقاً من الأحاديث الثابتة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام التي تقرر أن كل حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»(١).

وفي هذا (النص) يضع السيد فضل الله المسألة موضعها الصحيح بحيث يكون القرآن (الأصل) الذي يرجع إليه والمعيار الذي يحتكم إليه، ليحدّد بدوره موقع الرواية والخبر، ليعطيهما مكانهما من الصحة أو البطلان، لا أن يكون العكس هو الصحيح، بحيث يكون القرآن الكريم ملحقاً (ثقافياً) - إن صح التعبير للرواية - والخبر، ليكتسب موقعه ومكانته من خلالهما وفي ضوئهما.

ولذلك سجّل السيد فضل الله تخوّفه وخشيته من أن يتم تكريس ذلك فكتب معلّقاً على بعض الروايات: «.. لأننا نخشى أن تفرض هذه الروايات - بما فيها من التصورات - نفسها على المفاهيم القرآنية لتبتعد بها عن صفاء الفكرة وإشراقة الصورة وانفتاح التصور»(٢).

وفي ضوء هذه الملاحظة التي يشير إليها السيد فضل الله، يلاحظ الباحث تعاطيه الحذر مع الروايات في تحديد دلالات النص

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٤.
(٢) المرجع السابق، ج٧، ص٣٣٦.

القرآني، ولكن ذلك - كما أشار إليه هو نفسه - لا يعني تغافله عن الرواية ودورها في بعض الحالات، وهذا ما يفسّر اعتماده على عددٍ من أهم الكتب الروائية مثل: الكافي، والاحتجاج، ومعاني الأخبار، والمحاسن، وعيون أخبار الرضا، ومناقب ابن شهر آشوب.. أو اعتماده على التفاسير الخاصة بالمأثور مثل: البرهان في تفسير القرآن، وتفسير العياشي، وتفسير القمي..

ويلاحظ الباحث في موقف السيد فضل الله من الرواية وموقعها من التفسير أنه ينقسم إلى ثلاثة مواقف:

الأول: وهو موقف إيجابي من الرواية يتعدى فيه السيد فضل الله من القبول إلى وجوب الأخذ بالرواية وذلك في حالة:

- ما إذا كانت الآيات غامضة في تحديد المراد الواقعي منها، كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِىٓ أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْءَانِ..﴾ [الإسراء: ٦٠]، إذ استعان السيد فضل الله في تحديد المراد من الرؤيا والشجرة المشار إليهما في الآية بالرجوع إلى الرواية، تلك الرواية التي أفادت أن النبي ﷺ رأى في المنام قروداً تصعد منبره وتنزل فساءه ذلك واغتمّ به، وهو مما روي من طرق عديدة، من السنّة والشيعة. فقد كتب السيد فضل الله في ترجيح هذا التفسير بالاستعانة بالرواية ومطابقتها أو اقترابها من الظاهر القرآني: «وبذلك يكون التفسير الثالث - يقصد ما أشرنا إليه وقد نقله في جملة الأقوال - أقرب إلى الذهن وإلى جوّ الآية من خلال ما توحي به كلمة الإحاطة من الانفتاح على الأشياء المستقبلية، المتصلة بحركة الإسلام في المستقبل في ما يريد الله أن يعرِّف به رسوله، بما ينتظر دينه من تطورات على صعيد التطبيق في حركة الواقع، كما أن مفهوم الفتنة يلتقي بالواقع المنحرف

الذي يقود إلى الارتباط، أكثر مما يلتقي بما يختلف الناس حوله من الأخبار، ومن الأمور التي تؤكد هذا التفسير، إلتقاء روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم الحجة في تفسير القرآن، بروايات غيرهم من أهل السنة، وانسجامه مع حركة الآية في تحذير الناس من الانحراف عن خط الله من خلال الواقع المنحرف الذي يقودهم إلى الهلاك[(١)].

- ما إذا كانت الآية غامضة على مستوى تحديد المصداق، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ. . .﴾ [الشورى: ٢٣] الذي اختلف فيه المفسرون بين أن يكون الخطاب لقريش والأجر المسؤول هو مودتهم للنبي لقرابته منهم، أو يكون المراد مودة الأقرباء في داخل قريش أو في حياة الناس كافة، أو المراد منها قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهم أهل بيته، الذي جاءت به الروايات في كتب الفريقين من السنّة والشيعة.

ولتحديد المراد من الآية كتب السيد فضل الله: «وقد نحتاج إلى أن نثير المسألة في بعدها التفسيري، بأن هذه الكلمة مجملة من حيث المعنى لاحتمالها أكثر من معنى في ذاتها، فلا بد لاكتشاف معناها التفصيلي من قرينة داخلية أو خارجية، تعيِّن ذلك بالطريقة التي تحقق الانسجام بينها وبين الآيات المماثلة لها، وقد يلاحظ القارئ أن المودة في القربى هي أجر الرسالة، أو المعنى الذي يقترب من هذا الجو، ولكن لا معيِّن للمصداق، مما يجعل الرجوع إلى الروايات الواردة في هذا المجال هو الحل للمشكلة، وقد وردت هناك أخبار كثيرة حول تعيين أهل البيت عليهم السلام . .»[(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ج١٤-، ص١٦٤- ١٦٥.
(٢) المرجع السابق، ج٢٠، ص١٧٤- ١٧٥.

- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فقد فسّر السيد فضل الله «الشيطان» بالمرض، مستعينا بالروايات والأحاديث التي استخدمت كلمة الشيطان كناية عن الشيء الخفي الذي يترك تأثيره في الإنسان. . «باعتبار مشابهته للشيطان الذي يثير الأشياء السيئة في الإنسان بطريقة خفية مع كون المرض ونحوه شراً في نتائجه، كما هي نتائج وسوسة الشيطان. . »(١).

الثاني: وهو موقف يمكن وصفه بالاستئناس بالرواية في تفسير الآيات القرآنية في محاولة من المفسّر لتأكيد استنتاجاته ودعم استظهاره. وقد يلاحظ الباحث في تفسير (من وحي القرآن) حضوراً فاعلاً لمثل هذا الموقف، وربما يبدو ذلك في:

- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ. . .﴾ [المائدة: ٣٣]، حيث اختلف الفقهاء والمفسرون في العقوبات المذكورة من حيث أنها واردة على سبيل التخيير للحاكم أو أن لكل واحد منها موضعاً معيناً، فيكون ذكرها على سبيل الإجمال. وفي تحديد الموقف كتب السيد فضل الله: «ولسنا هنا في مجال تحديد الرأي الأقرب في هذا التفسير ولكن يمكن أن يكون الأقرب إلى ظاهر القرآن هو حمل «أو» على التخيير كما وردت الرواية في ذلك عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام»(٢).

- تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ

(١) المرجع السابق، ج١٩، ص٢٧٠، ج٥، ص١٤٢.
(٢) المرجع السابق، ج٨، ص١٥٠- ١٥١.

﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، حيث وردت الرواية في سبب نزول الآية أن يهودياً كان شيخاً في الجاهلية حاول إلقاء الخلاف بين الأوس والخزرج في محاولة منه للتذكير بالحروب القديمة بين القبيلتين. وقد رجّح السيد فضل الله أن تكون الآية في ظاهرها قريبة من الرواية المشار إليها التي لا تبتعد الآية في جوها عن المضمون الذي اشتملت عليه الرواية(١).

- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، فقد ذكر السيد فضل الله أن الدين هو التوحيد الذي يمثل القاعدة التي انطلقت فيها الرسالات لتؤكدها كحقيقة إيمانية ونقل - أيضاً - بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام التي فسّرت الآية بالتوحيد، وفسّرها البعض الآخر بدين الله، وكتب السيد فضل الله معقِّباً: «والظاهر أن هذه الرواية لا تنافي ما قلناه، لأن دين الله هو الذي أراد لكل رسله أن يبلّغوه هو التوحيد في العقيدة وفي العبادة الذي تتفرع منه كل التفاصيل في دائرة المبدأ»(٢).

الثالث: وهو موقف الرفض، حيث سجل السيد فضل الله رفضه لعدد كبير من الروايات، ولأسباب عديدة ومختلفة منها:

- مخالفتها للظهور القرآني، ويمكن أن نشير إلى موقفه من مسألة نزول القرآن جمعاً بين الآيات الكريمة وتحديداً التي تشير إلى نزوله في شهر رمضان، والروايات التي تحدد بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في شهر رجب، حيث حاول البعض الجمع على نحو يكون الفرق بين

(١) المرجع السابق، ج٦، ص١٧٩.
(٢) المرجع السابق، ج١٨، ص١٣٣.

الإنزال والتنزيل، أي نزول القرآن جملة واحدة، ونزوله تدريجياً. أما السيد فضل الله فقد سجل تحفظه على الروايات وبالتالي على هذه التفرقة بالقول: «.. فإن هذا الظهور القرآني البيّن يجعلنا لا نثق بالروايات التي توقّت البعثة في رجب أو تعيّن أول الآيات النازلة في سورة اقرأ، ولذلك فان من الممكن أن يكون المراد من الإنزال هو أول الإنزال، كما أن كلمة القرآن تطلق على القليل والكثير بما يشمل السورة والآية والمجموع..»(١).

- مخالفتها للسياق الذي عليه الآيات، حيث تبدو الرواية بعيدة عن الجو الذي تتصدى له الآيات الكريمة، ويمكن أن نشير إلى موقف السيد فضل الله في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ...﴾ [المائدة: ١١]، إذ وردت روايات تفسر الآية في اعتداء كان يستهدف النبي ﷺ خاصة وفي أجواء محل مناقشة. وقد ردّ السيد فضل الله هذه الروايات لمخالفتها السياق فكتب: «ونلاحظ إن سياق الآية وارد في التحديات التي كانت تواجه المسلمين جميعاً في محاولات الأعداء بالهجوم عليهم، بينما تتحدث الروايات عن محاولة العدوان على النبي ﷺ وحده، مما يفرض أن يكون الخطاب للنبي ﷺ كما ورد في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠](٢).

- مخالفتها للمضامين العقائدية الثابتة، كما يلاحظ في موقف السيد فضل الله تجاه الروايات التي تحدثت عن طبيعة نزول جبرائيل على النبي ﷺ ودور ورقة بن نوفل في تهدئة النبي ﷺ وتعريفه

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٢٨.
(٢) المرجع السابق، ج٨، ص٨٠.

بنبوته، حيث ناقشها السيد فضل الله بشكل مستفيض وردها للجهة التي أشرنا إليها[١].

أسباب النزول

وبمناسبة البحث في موقف السيد فضل الله تجاه الرواية في البحث التفسيري يحسن التذكير بموقفه - بشكل صريح - تجاه روايات ما يعرف بأسباب النزول بالتالي:

- عدم الاطمئنان والوثوق بصدور روايات النزول، وقد سجّل السيد فضل الله تحفظه هذا بشكل صريح وواضح فكتب: «إننا في منهجنا التفسيري لا نجد أية نصوص موثقة كثيرة مما رواه الرواة في أسباب النزول، لضعف أسانيد بعضها وإرسال بعضها الآخر. لذلك فإننا لا نعتمدها كموثقة تفسيرية في تفسير القرآن..»[٢].

وفي موضع آخر كرّس موقفه هذا بشكل أكثر تبريراً فكتب: «إننا نحاول التدقيق في روايات أسباب النزول، لأنها تمثل تصوراً ثقافياً قد يخطئ في إعطاء الصورة الدقيقة الحقيقية للتصور الإسلامي وللمضمون القرآني، لأن الكثير من هذه الروايات ليس موثقاً بما يضمن الوثوق بها..»[٣].

- كونها تعبّر عن وجهات نظر في كثير من الأحيان صيغت في رواية، وهذا ما سجّله السيد فضل الله على عدد من روايات أسباب النزول فكتب في بعض موارد تفسيره: «ونلاحظ أن هؤلاء المتحدثين

---

(١) المرجع السابق، ج٢٤، ص٣٣٠ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق، ج٦، ص١١٦.
(٣) المرجع السابق، ج٦، ص١٠٠.

عن أسباب النزول لم يستندوا في ذلك إلى رواية، بل انطلقوا في اجتهاداتهم في فهم الآية ومحاولة تطبيقها مما يفهمونه..»(١).

وكتب في موضع آخر من تفسيره وتعليقاً على بعض الروايات: «..إن البعض منها يعبّر عن اجتهاد الرواة والمفسرين من خلال ذهنياتهم المحدودة الخاضعة لبعض المؤثرات الثقافية..»(٢).

- وبعضها لا يخلو من إساءة لصاحب الرسالة النبي محمد ﷺ، ولذلك سجّل السيد فضل الله تحفظه على مثل هذه الروايات، كما يلاحظ في روايات أسباب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ...﴾ [المائدة: ١٠١]، حيث اشتملت هذه الروايات على ما لا يتناسب مع أخلاق النبي ﷺ وسجاياه المعهودة(٣).

وفي موضع آخر تحفظ السيد فضل الله على مثل هذه الروايات للسبب ذاته إذ كتب: «إننا نتصور أن هذه الروايات التي ذكرت في أسباب النزول تسيء إلى مقام النبي ﷺ وتبتعد عن سياق الآية، الأمر الذي يجعلنا نتحفظ في الاستفادة منها في التفسير»(٤).

- مخالفتها للروايات الموثقة أو مخالفتها للسياق التاريخي، كما لاحظ السيد فضل الله على الروايات التي رواها البعض في سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، حيث حشر بعض الرواة اسم الإمام علي عليه السلام، فردّها

---

(١) المرجع السابق، ج٧، ص٣٣٦.
(٢) المرجع السابق، ج٨، ص٣٥٨.
(٣) المرجع السابق، ج٨، ص٨١،٨٠.
(٤) المرجع السابق، ج ٨، ص ٣٢٤.

السيد فضل الله لكونها تخالف الروايات الموثوقة سنداً ومتناً وواقعاً، فضلًا عن السياق التاريخي الذي يكذّب مثل هذه الروايات، علاوة على المصالح التي تدفع إلى مثل هذا الاختلاق والوضع[1].

وإذا كان السيد فضل الله قد سجّل تحفظاته بشكل واضح على روايات أسباب النزول، فإن ذلك لا يعني عدم الاكتراث بهذا الموروث الإخباري والتاريخي والحديثي، ولذلك كتب: «وإذا كنا نتحفظ في أسانيد أسباب النزول، فإننا لا ننطلق في تفسيرنا للآيات منها، بل نحاول استيحاء المعنى من ظاهرها»[2] وبذلك فإنه يضعها في سياقها الطبيعي.

أخبار التفسير - معالم عامة:

لا شك أن هناك عدداً كبيراً من الروايات لتفسير القرآن شكّل المادة الأساس لما يسمى بـ (التفسير المأثور) سواء كان ذلك في المحيط الخاص أعني في محيط مدرسة أهل البيت عليهم السلام، أم في المحيط العام لجمهور المسلمين، وإن كان عدد الروايات في المحيط الأول أكبر وأوسع منه مما في المحيط الآخر.

وهذه الروايات في مجملها تشترك بسمات محددة يمكن أن تكوّن ملامح عامة لها وهي:

أولًا: الطابع التطبيقي:

وقد لاحظ الأعلام من المفسرين على الروايات أنها في الغالب

---

(١) المرجع السابق، ج١٨، ص٢٤٨.

(٢) الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً، م.س ص٢١٠.

تطبيقية وليست من التفسير، ولذلك فهي لا تتعارض مع ظاهر القرآن، كما وأنها لا تتنافى لو اختلفت مضامينها.

كتب الإمام الخميني تعليقاً على قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، قال: «وهنا لا بد من معرفة أن الفطرة وإن فسِّرت في هذا الحديث الشريف وغيره من الأحاديث بالتوحيد، إلا أن هذا هو من قبيل بيان المصداق، أو التفسير بأشرف أجزاء الشيء، كأكثر التفاسير الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، وفي كل مرة تفسر بمصداقٍ جديد بحسب مقتضى المناسبة فيحسب الجاهل أن هناك تعارضاً، والدليل على أن المقام كذلك هو أن الآية الشريفة تعتبر (الدين) هو (فطرة الله) مع أن الدين يشمل التوحيد والمبادئ الأخرى»(١).

وإلى هذا يشير السيد الطباطبائي فيما اسماه بـ (الجري) وهو اصطلاح - وفق رأيه - مأخوذ من قول أئمة أهل البيت عليهم السلام كما يشير إلى ذلك السيد الطباطبائي، كما ورد في حديث الإمام الباقر عليه السلام للفضيل بن يسار في وصف القرآن الكريم وانه «..يجري كما تجري الشمس» فكتب السيد الطباطبائي شارحاً.. «وهذه سليقة أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنهم عليهم السلام يطبقون الآية من القرآن على ما يقبل أن ينطبق عليه من الموارد وإن كان خارجاً عن مورد النزول»(٢).

وقد أشار إلى ذلك السيد الخوئي في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال: «وقد ورد في المأثور أن المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى. وقد

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١، ص٤٢.

(٢) الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، ص٤٨٧،، ط٣، ١٩٧٤، بيروت، مؤسسة الأعلمي.

تقدّم أن الآيات القرآنية لا تختص بمورد وأن كل ما يذكر لها من المعاني فهو من باب تطبيق الكبرى».

وقد أشار إلى هذه السمة السيد فضل الله في تفسيره (من وحي القرآن) وأوضح أن هذه السمة تقوم «على أساس الأسلوب الذي جرت عليه أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام في الإشارة إلى التطبيق بعنوان التفسير، للتأكيد على حركة القرآن المستقبلية في القضايا الفكرية والعملية الممتدة بامتداد الحياة..»(١) وذكر أيضا أن «التخصيصات الواردة في كلمات الأئمة عليهم السلام .. واردة في مقام التطبيق لا التفسير، وذلك لأنَّ لهم أسلوبهم الخاص في توجيه الناس إلى الأخذ بالقرآن والرجوع إليه في ما يُشكل عليهم أمره من قضايا الحياة»(٢). ولذلك اعتبر - كغيره من المفسرين من الأعلام -كثيراً من الروايات التي فسَّرت بعض الآيات بالأئمة عليهم السلام وأنها نزلت فيهم، أنها وردت فيهم باعتبارهم النموذج الأكمل(٣).

ثانياً: عدم الوفاء بالتفسير:

ويمكن أن يلاحظ على الروايات في حقل التفسير أنها لا تفي بمتطلبات التفسير - لأنها وإن بلغت عدة آلاف حديثٍ - كما عن السيد الطباطبائي إلا أنها وبغض النظر عن سقم بعضها لا تكفي للإجابة على الأسئلة غير المحدودة التي نواجهها تجاه الآيات القرآنية الكريمة فضلًا عن أن هناك آيات لم يرد فيها حديث أصلًا، لا من طريق السنّة ولا من طريق الشيعة(٤).

---

(١) فضل الله، من وحي القرآن مرجع سابق س ج٧، ص٣٢٥.
(٢) المرجع السابق، ج٨، ص٢٠.
(٣) المرجع السابق، ج٨، ص١٦.
(٤) الطباطبائي، القرآن في الإسلام م.س. ص٨٣.

وبذلك يتضح السبب في عجز منهج التفسير بالمأثور عن الإجابة على التحديات الكبيرة التي تطرح على القرآن الكريم، في وقت يعتبر فيه القرآن هو الكتاب السماوي الذي يجيب على تساؤلات الإنسان ويهديه إلى حياة أفضل ومنهج أقوم.

وفي هذا السياق يقول الشهيد محمد باقر الصدر: «..ومن هنا لم يكن بإمكان تفسير يقف عند حدود المأثور من الروايات عن الصحابة والتابعين وعن الرسول والأئمة، والروايات التي كانت تثيرها استفهامات عقلية على الأغلب من قبل الناس أن تتقدم خطوة أخرى وأن تحاول تركيب مدلولات القرآن والمقارنة بينها واستخراج النظرية من وراء هذه المدلولات اللفظية..»(١).

ولذلك كتب السيد فضل الله في موضع من تفسيره (من وحي القرآن) وبالتحديد في شرح منهجه الاستيحائي والإفادة من الروايات: «وفي ضوء ذلك، قد نستطيع الوقوف مع الروايات الكثيرة الواردة عن الأئمة عليهم السلام والمفسِّرة لبعض آيات القرآن بأهل البيت عليهم السلام لنجد أن البعض منها كان مختصاً بهم كآية التطهير والمودة في القربى، بينما كانت الآيات الأخرى منطلقة في الخط العام الذي يمثِّل أهل البيت عليهم السلام النموذج الأكمل له، كآية ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [النساء: ١٦٢] و﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧] و﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣] و﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣] و﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] و(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وإذا كانت بعض الروايات قد نزلت فيهم في مواردها الخاصة، في أسباب النزول،

(١) الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، ص١٤، ط٢، ١٩٨١، بيروت دار التعارف بتصرف يسير.

فإنها انطلقت لتمتد في الخط العام للقضية المطروحة فيها..»[1].

وإنما يشير السيد فضل الله إلى هذه الحقيقة فذلك لجهة تجاوز السمة التي غلبت على التفسير بالمأثور وعجزه عن تفعيل القرآن في حياة الإنسان، وذلك بلحاظ الجمود الذي يقتضيه هذا المنهج.

ثالثاً: مشكلة التوثيق:

ويبقى أن نشير إلى أن أهم مشكلة تعترض اللجوء إلى الأخبار والروايات في التفسير هي مشكلة التوثيق، والاطمئنان والوثوق بالصدور على أقل تقدير، وهي مشكلة شعر بها معظم المفسرين وفكّروا في الآليات التي تسعفهم في تجاوز هذه المشكلة وفقاً للمباني والأسس والمناهج التي رسموها لأنفسهم في أصل الاعتماد على الأخبار، ولم يشذ عن هذه الطريقة سوى بعض العلماء ممن أضفى على الأحاديث - بمجملها - صفة الاعتبار بناء على ما تصوره من قرائن أوجبت لهذا البعض القطع أو الاطمئنان بصدورها.

وقد كتب السيد الطباطبائي: «.. وأما ما ذكرنا من شيوع الدس والوضع في الروايات فلا يرتاب فيه من راجع الروايات المنقولة في الصنع والإيجاد وقصص الأنبياء والأمم والأخبار الواردة في تفاسير الآيات والحوادث الواقعة في صدر الإسلام، وأعظم ما يهم أمره لأعداء الدين، ولا يألون جهداً في إطفاء نوره وإخماد ناره وإعفاء أثره هو القرآن الكريم الذي هو الكهف المنيع.. وبالجملة احتمال الدس، وهو قريب جداً مؤيد بالشواهد والقرائن يدفع حجية هذه الروايات ويفسد اعتبارها، فلا يبقى معه لها لا حجية شرعية ولا حجية عقلائية حتى ما كان منها صحيح الإسناد، فإن صحة السند وعدالة رجال

(١) فضل الله، من وحي القرآن، المرجع السابق ج١/ ١٦.

الطريق، إنما يدفع تعمدهم الكذب دون دس غيرهم في أصولهم وجوامعهم ما لم يرووه»[١].

السيد فضل اللّه ومشكلة التوثيق:

وللسيد فضل الله حساسية مفرطة تجاه النصوص القلقة، ولذلك كثيراً ما نبّه على ضرورة التدقيق بالنصوص الروائية والإخبارية خشية أن تكون «جزءاً من تراث الوضع في الحديث الذي كان يكثر فيه الكذب على النبي محمد ﷺ وعلى أهل البيت عليهم السلام مما أتقن فيه الوضّاعون طريقة ترتيب الأحاديث بحيث تصبح موضعاً للثقة، باعتبار وثاقة رواتها، فقد كان الحديث يُدسّ في كتبهم دون أن ينتبهوا إليه..»[٢].

وبصدد تحديد موقفه تجاه تيارين اثنين أحدهما يميل إلى الإفراط في التعويل على الروايات والأخبار في التفسير بدعوى عدم البأس فيه وإن كانت الأخبار والروايات ضعيفة لجهة اختصاص التصحيح لها في الأحكام الشرعية من حيث الحلّية والحرمة وثانيهما يميل إلى التفريط بالجانب الروائي بدعوى الخوف من تسرب الدخيل إلى القرآن، كتب السيد فضل الله مشيراً إلى موقفه الوسطي: «.. فإننا نؤكد على ضرورة التدقيق في سند القصة التفسيرية ومضمونها، من أجل أن نعرف صحيح الحديث من فاسده على أساس الموازين العلمية الصحيحة، فلا نأخذ بحديثٍ إلا بعد أن تثبت لنا صحته وواقعيته وأصالته..»[٣].

---

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، ج١٢/ ١١٤-١١٥.

(٢) فضل الله، من وحي القرآن، ج١٦/ ٢٥٦.

(٣) المرجع السابق، ج٤/ ٣٧٩.

ومن خلال تتبع تفسير (من وحي القرآن) يلاحظ الباحث من خلال قراءة نهج السيد فضل الله أنه عمد إلى وضع عدة معايير لتفادي مشكلة التوثيق وتسرب الدخيل إلى الرؤية القرآنية من خلال اعتماد الأخبار والروايات في التفسير.

١ - أن يكون القرآن الكريم هو المرجع في قبول الرواية أو عدم قبولها، ولذلك أشار إلى أن الجو القرآني الذي تشتمل عليه بعض الحوادث فيما نقل منها عن طريق القرآن نفسه يفوق بقيمته أية تفاصيل أخرى كما هو الحال في تفاصيل السِيَر[(١)]، خاصة وأن هذه التفاصيل التي قد ترد في السير لا تشتمل على الأهداف التي يتوخاها الكتاب الكريم والغايات التي يشير إليها.

ومهما يكن من أمر، فإن مرجعية الكتاب تعني من وجهة نظر السيد فضل الله أن «وثاقة الأحاديث المنقولة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يتأتّى من عرضها على الكتاب والسنّة القطعية والموثوقة، فما وافقهما كان مقبولًا، وما خالفهما كان مردوداً..»[(٢)].

ويشير السيد فضل الله إلى أن «الاهتمام بالقرآن يعمل على صنع الذهنية القرآنية الصافية التي نستطيع من خلالها أن نكتشف زيف الأحاديث الموضوعة من خلال اكتشاف زيف المفاهيم التي عالجتها..»[(٣)].

٢ - التوفر على دراسة الروايات من خلال السند والمضمون معاً، ولذلك لا يمكن قبول الأخبار والروايات لمجرد كون رواتها من

(١) المرجع السابق، ج٥/ ٢٠٠.
(٢) المرجع السابق، ج١٦/ ٢٥٦.
(٣) المرجع السابق، ج١/ ٢٤.

الثقاة، وذلك لجهة كثرة الدخيل على أخبارهم ومحاولات الوضّاعين في تشويه تراثهم من خلال دسّ الموضوع في أخبارهم.

وفي هذا الصدد كتب السيد فضل الله: «ولهذا لا بد من دراسة مضمون السند، كما لا بد من دراسة السند الذي يثبت صدق مصدر النص، بعيداً عن كل الأجواء التي تثيرها فينا شخصية الأشخاص الذين ينقلون لنا التراث»(١) ولذلك لا يمكن من وجهة نظر السيد فضل الله «الاكتفاء بدراسة السند، لأن القضية تتصل بعمق المفاهيم الإسلامية»(٢).

وفي هذا السياق يمكن أن يعثر الباحث في تفسير (من وحي القرآن) على عدة علامات للوضع في الأخبار، مما أشار إليه السيد فضل الله في ثنايا تفسيره، ومن ذلك:

١ - أن يكون الخبر مخالفاً للثوابت القرآنية والعقيدية، كما أشار إلى ذلك السيد فضل الله في تعليقه على ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام مما ورد في تفسير القمي، وبالتحديد في تفسير قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٢٩-٣٠]، قال: «خلقهم حين خلقهم مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيداً، وكذلك يعودون يوم القيامة مهتدياً وضالّاً» فقد كتب السيد فضل الله في التعليق: «ونلاحظ أن هذا اللون من الروايات مما لا يمكن الأخذ بظاهره، لأنه يوحي بأن إيمان الإنسان وكفره أو سعادته وشقاوته ناشئان من طبيعة الخلق مما يجعل النهاية كالبداية، وباعتبار

(١) المرجع السابق، ج١٦/ ٢٥٤.
(٢) المرجع السابق، ج١٦/ ٢٥٦.

توقف مختلف هذه الموارد على طبيعة عنصر الخلق، فيكون الفعل مظهراً لما في الذات، لا منطلقاً من الاختيار الناتج عن التربية، مما يجعل مسألة التعليم والتربية وحركة الرسالات في الهداية والإنذار والتبشير لا معنى لها، وهذا مما لا يتفق مع العقل في حركته الفكرية وفي بناء العقلاء، في أمورهم الجارية على واقعية الإرادة الإنسانية والتوجيه العام، في بناء الشخصية في عناصرها الايجابية والسلبية، ولذلك لا بد من توجيه أمثال هذه الرواية على تقدير صدورها..»[١].

٢ - أن يكون الخبر غريباً ودخيلاً على النسق القرآني من خلال تعاطيه مع الأحداث وتحليلها والحديث عنها، ولذلك ردّ السيد فضل الله بعض الروايات التي تناقلها المحدِّثون في تفسير قوله تعالى: (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم)، حيث اعتبرها دخيلة على التحليل القرآني للمسألة، مما يوحي أنَّ هناك نسجاً من الخيال صاغته ذهنيات الرواة[٢].

٣ - أن يكون الخبر مخالفاً للرؤية القرآنية للرسالة ولشخصية الرسول، كما في عدد غير قليل من الروايات التي جاءت تحمل في تفاصيلها إساءة للرسول وشخصيته، كما في قصة الإفك، حيث ردّ السيد فضل الله عدداً من الروايات في هذه القصة كونها «تسيء إلى الشخصية الرسالية التي يتميز بها النبي ﷺ، ولجهة تكوين الانطباعات السلبية عن الناس، لا سيما الأقربين إليه قبل التأكد من تحقق الأسس الشرعية التي تثبت عناصر الاتهام..»[١]. وكذلك موقفه من الأحاديث والروايات التي صاغت موقعاً خاصاً لورقة بن

(١) المرجع السابق، ج١٠/ ٨٧.
(٢) المرجع السابق، ج١٦/ ٢٥٦.

نوفل في تاريخ الرسالة، مما يتنافى مع شخصية النبي ﷺ تاريخياً، فضلًا عن الإشكاليات التي تتصل بالجانب العقيدي[١].

٤ - أن تكون الأخبار مختلفة في مضامينها، وإن لم تصل إلى حد التناقض، لأن اختلافها قد يوحي بعدم الاطمئنان والوثوق بها، ويشير إلى يد الوضع والتحريف والتزييف التي طالتها[٢].

وفي هذا السياق نفسه، يمكن أن يُشار ولو على نحو الإجمال إلى ما يمكن تسميته بموقف السيد فضل الله من الإسرائيليات إذ أنه موقف لا يخرج عن هذا التحديد الذي أشرنا إليه من خلال موقفه العام من التراث الروائي والأخباري[٣].

(١) المرجع السابق، ج٢٤/ ٣٣٠-٣٣١.
(٢) المرجع السابق، ج٢٤/ ٣٣٠-٣٣١.
(٣) المرجع السابق، ج٤/ ٣٧٩.

المقولة الثانية

الظهور القرآني

القرآن الكريم كلام كسائر ما يتكلم به الناس- بغض النظر عن علو مضمونه - وهو عندئذ يفهم كما يفهم كلام الناس، وليس كتاباً رمزياً أو أنه مستغلق اللغة والمفاهيم، ولا يمكن استجلاء معانيه وسبر أغواره، بل أنه يمكن فهمه دونما الحاجة - من وجهة نظر السيد فضل الله وغيره من الأعلام المفسرين - «إلى الخروج عن المألوف من قواعد اللغة العربية[1] في تفسيره ولذلك فانه لا يمكن القول باستعصاء فهم القرآن وعدم إمكان فك مغاليقه.

وقد اتفق العلماء والمفسرون - إلا ما شذّ - على أن فهم الكتاب الكريم بالطريقة التي تعارف عليها الناس هو الحجة، إلا إذا كان ثمة دليل يقضي بالخلاف، إذ لم يبيِّن الشارع طريقة يرتضيها غير الطريقة التي عليها الناس في فهم الكلام.

ولذلك أتعب الأصوليون - وبالتحديد من علماء الشيعة - أنفسهم في بحث حجية الظواهر وأن لا دليل على حجية غيره.

وفي هذا السياق كتب السيد فضل الله : «. . وبالتالي فإن أي خروج عن ظواهر مراده يجب أن لا يكون - كما أشرنا قبلًا - إلا

(١) المرجع السابق، ج١/١٨.

بدليل قطعي من السنّة والعقل، وبما ينسجم وقواعد اللغة العربية وفنون بلاغتها وفصاحتها»(١).

يجب التنويه إلى أن أنظار المفسرين قد تختلف في الاستظهار واقتناص ما هو الظاهر من القرآن الكريم وذلك تبعاً للمستوى الثقافي واللغوي والمنهج الذي يتبناه المفسِّر.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]، استظهر منه السيد الطباطبائي أن النسل الموجود من الإنسان ينتهي إلى آدم وحواء من غير أن يشاركهما فيه غيرهما، ولذلك رجَّح الروايات التي دلّت على وقوع الزواج بين الأخوة من آدم وحواء، على الروايات التي دلّت على وقوع الزواج من حور العين أو الجنية التي أنزلتا لقابيل وهابيل(٢).

وقد علّق السيد فضل الله على هذا الاستظهار: «..ولكن هذا الاستظهار غير دقيق لأن هذه الفقرة تتحدث عن انطلاق التناسل منهما باعتبارهما المصدر الأول.. من دون تعرّض لما حدث بعدهما من خصوصية التزاوج، فلا ظهور لها من هذه الجهة نفياً أو إثباتاً»(٣).

ومهما يكن من أمر، فإن فهم القرآن الكريم من خلال ظواهره هو المنهج الذي اعتمده السيد فضل الله في التعاطي مع الكتاب الكريم وفهمه والوقوف على تشريعاته ومفاهيمه وأصوله ومعارفه.

---

(١) المرجع السابق ج١/١٨.
(٢) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٤/١٤٧، و١٣٦ وما بعد.
(٣) فضل الله، من وحي القرآن، ج٧/٢٧-٢٨.

وربما لا يسع البحث الاستطراد في ذكر نماذج كثيرة لاستظهارات السيد فضل الله في تفسيره (من وحي القرآن)، إلّا أنَّ ما يلزم الإشارة إليه هو تأكيد السيد فضل الله على أن يكون الوقوف على المدلول من خلال الظهور وحده، دون أن يضيف المفسِّر شيئاً آخر يحاول فيه ومعه أن يحمِّل المفسِّر الكلام ما لا يحتمل، ونشير إلى عدة نماذج في هذا السياق:

١ - في تفسير قوله تعالى من سورة الشورى: (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض) حاول السيد الطباطبائي أن يفسِّر سؤال الملائكة الله الغفران لأهل الأرض بمعنى أن يحقق لهم سبب حصول المغفرة، فسؤالهم - أي الملائكة - المغفرة لأهل الأرض مرجعه إلى سؤال أن يشرِّع لهم ديناً يغفر لمن تديَّن به منهم، أي أن الملائكة يسألون الله أن يشرِّع لمن في الأرض من طريق الوحي ديناً يدينون به فيغفر لهم بذلك.

وقد لاحظ عليه السيد فضل الله أنه معنى لا ينسجم مع الظاهر، وإن أمكن استفادته من دليل آخر، ولكن المفترض في المفسِّر أن لا يحمِّل الآية ما لا تحتمل، فإن الظاهر من الاستغفار في الآية معنى يتصل بالواقع العملي للإنسان بشكل مباشر، وما أخطأ فيه من التزام أوامر الله ونواهيه، لتكون المغفرة أساساً لإيجاد الجو الذي يقود الإنسان نحو الهداية، وذلك بإغلاقها ملف الماضي والابتداء بسلوك جديد، وأما الحديث عن اختصاص الاستغفار بالذين آمنوا فهذا أمر يستفاد من دليل آخر لا من الآية الكريمة..[1].

٢ - في مسألة نزول القرآن ومحاولة الجمع بين ما ورد من

(١) المرجع السابق، ج٢/١٤٢-١٤٣.

نزوله في شهر رمضان وبالتحديد ليلة القدر وبين ما ورد من كونِ بعثته ﷺ في شهر رجب، أو بينه وبين ما ورد مما يشير إلى النزول التدريجي، حاول البعض ومنهم السيد الطباطبائي أن يفرقوا بين النزول الدفعي وبين النزول التدريجي، فقد يكون نزل دفعة واحدة - مجموعاً - في ليلة القدر، ونزل مرة أخرى نجوماً في مدة ثلاث وعشرين سنة.

وقد لاحظ السيد فضل الله أن هذه المحاولة لا يمكن اقتناصها من الظاهر، بل أن الأقرب هو أن يكون المقصود من نزول القرآن في ليلة القدر ابتداء نزوله، ولا سيما إذا عرفنا أن القرآن يطلق على الآية والسورة والمجموع.. مع ملاحظة أن الآية التي تتحدث عن نزوله في ليلة القدر أو ليلة مباركة هي من آيات القرآن الكريم فكيف تكون ناظرة إلى المجموع..[1].

٣ - في آية الكرسي وبالتحديد في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حاول السيد الطباطبائي أن يعتبر الحديث عن الشفاعة في الآية الكريمة شاملًا للشفاعة التكوينية بمعنى التوسط المطلق في عالم الأسباب والوسائط، والشفاعة التشريعية أي التوسط في مرحلة المجازاة التي يثبتها القرآن والسنة..

ولكن السيد فضل الله يرى خلاف ذلك، بل يعتقد أن السببية التكوينية في ارتباط الأشياء بأسبابها على أساس ما أودعه الله فيها، وإن كان مما لا خلاف فيه، ولكن الظاهر من الآية أن الشفاعة المشار إليها هي الشفاعة في عالم المجازاة، وهو الذي جاء مناسباً ومنسجماً مع إثبات قدرته المطلقة في تدبيره الأمور بعد خلقه لها واستقلاله بها،

---

(١) المرجع السابق، ج٢٠/٢٧٨.

بعيداً عن أي تأثير ذاتي لغيره مما يريد إصداره من قرارات في مجال العقاب والثواب[١].

٤ - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، فسَّر السيد الطباطبائي هذا الإلقاء بمعنى تحريض الناس وتهييج الظالمين وإغراء المفسدين من خلال وسوسة الشيطان لهم، وذلك لإعاقة ما يتمناه النبي أو الرسول.

وقد لاحظ عليه السيد فضل الله أنه تفسير لا ينسجم مع ظاهر الآية، إذ أن هذا التفسير.. حاول أن ينظر إلى مسألة إلقاء الشيطان في الأمنية النبوية من خلال النظرة إلى الواقع الخارجي لحركة الأمنية في ساحة الصراع بين خط الله وبين خط الشيطان، مما يجعل الآية تطال أجواء إغراء الشيطان للآخرين لجهة إبطال الأمنية في الواقع، ولم يحاول أن ينظر إليها من الداخل في ما تختزنه كلمة ألقى الشيطان في أمنيته من معنى إدخال شيء فيها بحيث تكون ظرفاً له وموقعاً من مواقعه، لا حركة خارجية من الآخرين في مواجهتها، ليكون النسخ - من خلال ذلك - نسخاً في حركة الواقع، لا نسخاً في طبيعة الأمنية»[٢].

وربما يحسن أن نشير إلى أن استظهارات المفسِّر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بثقافته اللغوية والحديثية والإسلامية عموماً، فربما أيَّد المفسر استظهاره بالرواية تارة وبالسياق تارة أخرى، وهو ما يلاحظه الباحث في منهج السيد فضل الله.

---

(١) المرجع السابق، ج٥/ ٣٤-٣٥.
(٢) المرجع السابق، ج١٦/ ١٠٠.

فقد أيّد استظهاره في تفسير قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، بمعنى توجيه الناس إلى ممارسة تسبيحه وتحميده تعالى، مؤيداً ذلك بالسياق الذي عليه الآيات، مشيراً إلى بُعد ما اختاره السيد الطباطبائي من تفسير التسبيح والتحميد بما يعني إنشاء التنزيه والثناء منه تعالى لا من غيره[١].

كما أنه - السيد فضل الله - أيّد استظهاره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١] بالرواية، حيث اختلف المفسرون في المراد من قطع السبيل، فقد فسَّره بعضهم بقطع طريق التناسل، على سبيل الكناية عن الإعراض عن النساء وترك الزواج، وفسَّره بعضهم بقطع سبيل المارة بديارهم، وكانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالحذف، فأيهم أصابه كان أولى به، فيأخذون ماله وينكحونه ويغرمونه ثلاثة دراهم.

وقد استقرب السيد فضل الله الرأي الثاني لظهور اللفظ فيه ولعدم تعارف التعبير عن ترك نكاح النساء بذلك، وعدم تبادره إلى الفهم العرفي حتى على نحو الكناية، مع ملاحظة أن قوم لوط لم يكونوا تاركين لنكاح النساء على نحو يقطع النسل بل كان ذلك منهم إلى اشتهاء الذكر، وأيّد السيد فضل الله استظهاره بما روي من أخبار تتفق وهذا الاستظهار[٢].

---

(١) المرجع السابق، ج١٨/ ١١١.

(٢) المرجع السابق، ج١٨/ ٤٣.

العدول عن الظاهر:

إن مبدأ العمل بالظهور القرآني لا يعني عدم جواز العدول عنه مطلقاً، ولذلك يمكن للمفسِّر تجاوز الظاهر إلى غيره، ولكن هذا العدول وهذا التجاوز مشروط بوجود ما يبرره، ولذلك كتب السيد فضل الله في هذا السياق: «إن حمل القرآن على خلاف ظاهره لا بد فيه من حجة واضحة تقرِّب الفكرة الجديدة إلى الفهم العام بحيث تتبادر إليه بعد البيان»[(١)] وبصدد بيان وتوضيح هذه الحجة كتب السيد فضل الله: «. . فإن أي خروج عن ظواهر مراده - يقصد القرآن - يجب أن لا يكون إلا بدليل قطعي من السنّة والعقل، وبما ينسجم وقواعد اللغة العربية وفنون بلاغتها وفصاحتها»[(٢)].

ولذلك يؤكد السيد فضل الله أنه لا يمكن العدول عن الظهور القرآني لمجرد الاستبعاد لأنه لا يصلح دليلًا على ذلك، ولذلك نعى على بعض المفسرين في محاولاتهم تفسير بعض ما يتصل بالغيب بما لا ينسجم مع الظهور القرآني لمجرد الاستبعاد أو لكون ذلك من الأمور الغيبية التي لا يمكن الوقوف عليها بشكل تفصيلي[(٣)].

ولذلك تحفظ السيد فضل الله على تفسير قوله تعالى: (ألم ترَ إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)، بما لا ينسجم مع الظهور القرآني الذي يفيد أنها قصة حقيقية واقعية وليست رمزية أو للتمثيل.

---

(١) المرجع السابق، ج١/ ٢٥٥.
(٢) المرجع السابق، ج١/ ١٨.
(٣) المرجع السابق، ج٥/ ٧٣.

وكتب السيد فضل الله في تأكيد واقعية هذه الحادثة: «.. ولعل في ابتداء الآية بكلمة (ألم ترَ) ما يوحي بأن القصة كانت معروفة بشكل واضح، أو هكذا تريد الآية أن توحي، مما يؤكد الطبيعة الواقعية للقصة، ولهذا كله فإننا نتحفظ بشدة في تأويل كلمات الآية إلى غير ما هو الظاهر من معناها اللغوي، لا لأننا نرفض الاستعمالات المجازية في القرآن، بل لأن جو الآية لا يسمح بذلك..»[(١)].

ولذلك رفض السيد فضل الله تفسير (الإسراء) بالنبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بما يخرج عن الظاهر الذي يفيده القرآن، وهو إسراؤه بجسده ﷺ إذ أن ظاهر كلمة (عبده) تعبير عن الذات بمعناها المادي والجسدي كما يرى السيد فضل الله[(٢)].

مبرّرات العدول:

كما أشرنا - سابقاً - إنَّ العدول عن الظاهر يحتاج إلى حجة لغوية أو عقلية تبرر هذا العدول ويمكن أن نشير إلى بعض هذه المبررات كما ورد في ثنايا تفسير (من وحي القرآن):

١ - الأسلوب البلاغي:

إذ أن سياق الجملة بلاغياً قد يشير أحياناً إلى عدم إرادة الظاهر من الكلمة، فتكون واردة على نحو الاستعارة، ولذلك فسَّر السيد فضل الله (الأمانة) التي وردت الإشارة إليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، بالمسؤولية «التي

---

(١) المرجع السابق، ج٤/ ٣٧٧.
(٢) المرجع السابق،ج١٤/ ١٠.

يتحملها الإنسان في ما يقوم به من أعمال وأقوال، وباعتبار أنها التي تتصل بالنتائج السلبية التي يخاف الإنسان من خلالها أن يتعرض لعقاب الله، وهي التي يمكن أن يعرضها الله على مخلوقاته بأن تتحمل مسؤولية نفسها، فتدير أوضاعها وتتحرك من موقعها الإرادي، وهذا هو المعقول في ذلك كله. وعلى هذا ، فيكون العرض وارداً بنحو الاستعارة بحيث تكون الفكرة أن المسؤولية التي يتحملها الإنسان في ما يواجهه من النتائج أمام الله، هي من الثقل بحيث لو عرضها الله على هذه المخلوقات لرفضتها خوفاً منها فنزّل ذلك منزلة العرض الواقعي. . لما يترتب على ذلك من العقاب الإلهي على الإنحراف عن أوامر الله ونواهيه مما لا يستطيع مخلوق أن يتحمله أو يقبله»[(١)].

٢ - القرائن العقلية:

إذ أنها توجب صرف اللفظ من الظاهر إلى غيره، ولذلك فسّر السيد فضل الله قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ [الزلزلة: ١-٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، التحدث والتسبيح على نحو يكونان كناية عن قدرة الله تعالى وإرادته[(٢)].

٣ - القرائن التاريخية:

وهو ما يمكن أن نسميه بطبيعة الأشياء وطبيعة السير التاريخي،

---

(١) المرجع السابق، ج٢٤/ ٣٧٠.
(٢) المرجع السابق، ج٢٤/ ٣٧٠.

إذ أنها يمكن أن تكون مبرراً لصرف الكلام عن ظاهره، وإن لم يكن السيد فضل الله ليشير إلى هذه القرائن بشكل واضح أو يصرّح بهذه التسمية، إلّا أن الباحث يمكن أن يجد ما يمكن أن يكون نموذجاً لها.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١-٢]، اختلف المفسرون في إيجاد الصلة بين الفتح والمغفرة، ولذلك ذهبوا إلى تفسيرات مختلفة، اختار معظمها العدول عن الظاهر، وإن كان لكلٍ طريقته ومبرره، ومن هؤلاء المفسرين السيد فضل الله الذي وجد من اللازم تفسير الآية بما ينسجم مع صفاء شخصية النبي ﷺ وصفاتها وجهادها بحيث يفسر الكلمة من الغفران بما يتفق مع الرضوان والمحبة والرحمة(١).

٤ - الدليل النقلي:

إذ إنه يمكن أن يكون مبرراً لصرف الكلام عن ظاهره، ولكن بشرط أن يكون سليماً وصالحاً للاستدلال، من حيث السند ومن حيث الدلالة(٢).

باطن القرآن:

وردت الإشارة إلى «بطون القرآن» في عدة من الروايات المروية عن أهل البيت عليهم السلام بل ومن طرق أخرى عن غيرهم، منه(٣):

---

(١) المرجع السابق، ج٢١/ ٩٨-٩٩.
(٢) المرجع السابق، ج١٤/ ١٠.
(٣) راجع: بحار الأنوار ج٩٢/ ص٧٨ حتى ص١٠٦، وتفسير البرهان ج١/ ١٩- ٢١- باب (في أن القران له ظهر وبطن) المقدمة ط قم/ ١٤١٧هـ.

- ما روي عن فضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية «ما من القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن» فقال: ظهره تنزيله، وبطنه تأويله، منه ما قد مضى، ومنه ما لم يكن، يجري كما تجري الشمس والقمر، كلما جاء تأويل منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء، قال الله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم)، ونحن نعلمه».

- ما روي عن عمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ظهر القرآن الذين نزل فيهم، وبطنه الذي عملوا بمثل أعمالهم».

- ما روي عن جابر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام : «يا جابر إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً، ثم قال: يا جابر، وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه، إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل متصرِّف على وجوه».

وثمة روايات أخرى لا تبتعد عن هذا المؤدى (المضمون) الذي نقلناه، بل إنها لا تبتعد عن الأسانيد نفسها، وهي محل تأمل ومناقشة على مستوى السند والدلالة(١).

وقد وقع الاختلاف بين المفسرين لتحديد المراد من بطن القرآن مما ورد في الروايات، وهو اختلاف قديم يرجع إلى طبقة العلماء والمفسرين القدماء، ولذلك نشير إلى بعضهم وإلى بعض المتأخرين والمعاصرين فضلًا عن موقف السيد فضل الله:

نظرية الشيخ المفيد:

كتب الشيخ المفيد لتفسير (ظاهر القرآن وباطنه) : «ومعاني

---

(١) راجع: الحسيني، محمد، مطارحات في قضايا قرآنية بحث (بطون القرآن) ص٩٧.

القرآن على ضربين ظاهر وباطن، فالظاهر: هو المطابق لخاص العبارة تحقيقاً على عادات أهل اللسان.. والباطن هو ما خرج عن خاص العبارة وحقيقتها إلى وجوه الاتساع، فيحتاج العاقل في معرفة المراد من ذلك إلى الأدلة الزائدة على ظاهر الألفاظ كقوله سبحانه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٨٣]، فالصلاة في ظاهر اللفظ هي الدعاء حسب المعهود بين أهل اللغة، وهي في الحقيقة لا يصح منها القيام، وليس يفهم هذا - يقصد التفاصيل - من ظاهر القول، فهو الباطن المقصود»[(١)].

نظرية الشيخ الطوسي:

كتب الشيخ الطوسي في مقدمة تفسيره (البيان) «فأما ما روي عن النبي ﷺ أنَّهُ قال: «ما نزل من القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن» وقد رواه - أيضاً - أصحابنا عن الأئمة عليهم السلام فانه يحتمل وجوهاً:

أحدها: ما روي في أخبارنا عن الصادقين عليهم السلام وحكي ذلك عن عبيدة أن المراد بذلك القصص بأخبار هلاك الأولين، وباطنها عظة للآخرين.

والثاني: ما حكي عن ابن مسعود أنه قال: «ما من آية إلا وقد عمل بها قوم ولها قوم يعملون بها».

والثالث: معناها أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها، ذكره الطبري واختاره البلخي.

---

(١) المفيد، محمد بن النعمان، التذكرة في أصول الفقه في سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد، ج٩/ ٢٩، ط٢، دار المفيد، بيروت، ١٩٩٣.

والرابع: ما قاله الحسن البصري: «إنك إذا فتشت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها»(١).

ولم يظهر رأي الشيخ الطوسي في ما ذكره من أقوال، وربما يكون رأيه ما طابق الرواية عن الصادقين عليهما السلام، وعندئذ يكون تفسيره لبطن القرآن، أن ما ورد من قصص وأخبار عن الأولين والأمم السابقة، إنما هو أمثال لكلامه سبحانه وتعالى، ولا تقتصر على السابقين، بل هي منطبقة على غيرهم أيضاً، وبذلك يكون (البطن) من التطبيق أو ما يسميه البعض بـ (الجري) على حد تعبير السيد الطباطبائي.

نظرية الآخوند الخراساني:

إذ احتمل الآخوند كاظم الخراساني أحد علماء الأصول (أصول الفقه) المتأخرين، أمرين اثنين(٢):

أحدهما: أن البطن مراد بالاستقلال من دون دلالة الألفاظ، وتكون هذه البطون مقارنة لاستعمال الألفاظ في معانيها، كما لو قال القائل: قدم الحاج وأراد مقارناً لكلامه معان أخرى من المعاني الاستقلالية، التي تراد مقارنة لاستعمال اللفظ في معناه من دون دلالة ذلك اللفظ ولو بالالتزام.

وثانيهما: أن يكون البطن من لوازم المعنى المستعمل فيه اللفظ

---

(١) الطوسي، محمد الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ج١/ ٩ ط بيروت/ دار إحياء التراث العربي.

(٢) الجزائري، محمد جعفر، منتهى الدراية في توضيح الكفاية، ج١/ ١٩٣ وما بعدها ط٢/ قم أ ١٤٠٣هـ.

فلا يكون اللفظ مستعملاً فيها، وإن كان يدل عليها بالدلالة الالتزامية نظير كون (مجيء زيد) ملازماً عادة لنزول البركات.

وتصنَّف قراءة الاخوند الخراساني في جملة التفكير الأصولي الفلسفي الذي شاع عند الشيعة مؤخراً.

نظرية السيد الطباطبائي:

وتتلخص نظرية السيد الطباطبائي في أن الباطن هو المعنى الثاني الذي يراد من الآية فيكون للآية معنيان أحدهما ظاهر والآخر باطن، إلّا أنهما واقعان في الطول لا في العرض(١).

نظرية السيد السبزواري:

وربما لزحمة الإشكالات والإشكالات المضادة حول تفسير (بطن القرآن) فضّل السيد عبد الأعلى السبزواري (أحد فقهاء الشيعة المتأخرين) أن يفسّر (بطن القرآن) بالإشارات والرموز التي لا يفهمها إلا أشخاص خاصة(٢).

نظرية السيد فضل الله:

رفض السيد فضل الله أن يكون المراد من (بطن القرآن) هو المعنى الثاني الذي يأتي بالدرجة الثانية من المعنى الأول وهو الظاهر، كما هو رأي السيد الطباطبائي، كما رفض أن يكون ذلك من قبيل الرموز والإشارات.. فكتب في هذا الصدد: «.. ولذلك فإن التعبير

---

(١) الطباطبائي، القرآن في الإسلام، المرجع السابق، ص٣٩ وما بعد.

(٢) السبزواري، عبد الأعلى، تهذيب الأصول، ج١/٣٦، ط٢ دار المنار أ بيروت / ١٩٩٩.

الباطني إما أن يكون من قبيل الإيحاء أو أنها من اللوازم، ولذلك نقول: ليس هناك باطن بمعنى أن القرآن يستبطن معانٍ كثيرة على خلاف المعنى اللغوي. نعم، إن القرآن يستبطن استيحاءات كثيرة ويستبطن لوازم كثيرة(١)، وعليه فإن (بطن القرآن) هو الاستيحاء بطريقة الانطلاق من الجزئي إلى الكلي، أو المادي إلى المعنوي، لا على طريقة استعمال اللفظ في معناه(٢)، لأن اللفظ لا يتحمل أكثر من معنى.

أما الانطلاق من الجزئي إلى الكلي فهو من باب التطبيق الذي ورد كثيراً في روايات أهل البيت عليهم السلام تعبيراً لما أسماه الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بالجري، وأن القرآن الكريم يجري في حياة الناس مجرى الشمس والقمر والليل والنهار.

وأما الانطلاق من المادي إلى المعنوي فانه يقوم على إدراك ما وراء المدلولات اللفظية من مغزى وهدف وعظة.. كما في التفسير الوارد عن الإمام الباقر عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، قال في جواب السائل من حرق أو غرق، فقال السائل: فمن أخرجها من ضلال إلى هدى؟ قال عليه السلام: ذاك تأويلها الأعظم.

ولذلك رفض السيد فضل الله أن يكون هناك منطقة خاصة لا

---

(١) فضل الله، الندوة، ج١/ ٢٤٠ ط دار الملاك- بيروت.

(٢) فضل الله، الندوة ، ج١/ ٢٤٠ ط دار الملاك أ بيروت. فضل الله (صورة النبي محمد صلى الله عليه وآله في القرآن) بحث قدَّمه السيد فضل الله لمؤتمر السيرة النبوية المنعقد بدمشق عام ١٩٩٥ ، منشور في مجلة الثقافة الإسلامية الصادرة عن المركز الثقافي الإيراني عدد (٦٥) سنة ١٩٩٦ ص٥٠.

يمكن فهمها من العامة، وذلك انطلاقا من الحديث عن (بطن القرآن)[١]، كما أنه رفض أن يكون هناك معنى مخزون لا يفهمه ولا يسع أحد فهمه إلّا جهة خاصة[٢]، وذلك انطلاقا من الحديث عن (بطن القرآن).

(١) فضل الله من وحي القرآن ج١/ ٩.
(٢) فضل الله، من وحي القرآن ج١/ ٩. المرجع السابق، ج١/ ١٠.

المقولة الثالثة

السياق القرآني

ونريد بالسياق مجموعة الدوالّ التي تصاحب الكلام سواء كانت لفظية، كالكلمات التي تشكل مع اللفظ الذي يراد فهمه كلاما واحداً مترابطاً أو كانت حالية كالظروف والملابسات التي تحيط بالكلام وتكون ذات دلالة في الموضوع.

وأخذ السياق بالاعتبار في فهم الكلام أمر لا يمكن إنكاره لأنه إن أنكر فإنه يؤدي إلى فهم الكلام بطريقة حرفية أو قاموسية، ولذلك سجل السيد فضل الله ملاحظة عامة على عدد من المفسرين لاستغراقهم في الفهم الحرفي والقاموسي لآيات القرآن فكتب بهذا الصدد: «ولعل مشكلة الكثيرين من المفسرين في تفسيراتهم لكلمات القرآن أنهم يحملونها على معناها الحرفي غير ملتفتين إلى أساليب البلاغة من الاستعارة والمجاز من خلال القرائن المتنوعة التي يحددها السياق العام للكلمة الذي يتحدث عن العمق المعنوي لا عن السطح المادي بطريقة الإيحاء»[١].

وربما ورد في تعبيرات السيد فضل الله بـ (الجو القرآني)[٢] وهو ما يقرب من السياق.

---

(١) المرجع السابق، ج١٠/ ٢٨- ٢٩.

(٢) راجع المرجع السابق: ج٢٤/ ٦٥، ج٥/ ٢٢١، ج٥/ ٣٠٥، ج١٩/ ٢٧٠، ج١٨/ ١٠٨.

وقد أفاد السيد فضل الله من (السياق) في تفسيره (من وحي القرآن) في عدة موارد:

١ - لتحديد معنى الآيات الكريمة والمراد منها: كما في:

◉ تحديد المراد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الروم: ١٠]، حيث اختلف المفسرون في تفسير كلمة (السوأى) إلى رأيين: أحدهما: أن تكون كناية عن العذاب باعتبار أنه الأسوأ في ما يصل إليه الإنسان وبذلك يكون معنى الآية: ثم كان عاقبة هؤلاء الذين أساؤوا العمل، العاقبة الأسوأ، وهي العذاب، لأنهم كذبوا بآيات الله واستهزأوا بها، وبذلك تكون كلمة (السؤاى) اسم كان، وتكون (عاقبة) خبرها، وقد تقدم، وثانيهما: أن تكون كلمة (السؤاى) تعبيراً عن العمل السيء، وهو المعاصي التي يمارسونها، فتكون مفعولًا لأساؤوا ويكون المعنى: ثم كان عاقبة الذين عملوا الأعمال السيئة التي كان ينهاهم عنها الرسول، أن أمرهم انتهى إلى التكذيب والاستهزاء لأن تأثير المعاصي في نفوسهم جعلهم في موقع الكفر مما جعله أقرب إلى نمط حياتهم من الإيمان الذي لا يرضى بأفعالهم.

وقد رجح السيد فضل الله المعنى الثاني وذلك لأنه اقرب إلى جوّ الآيات وسياقها حيث إنه جوّ المواجهة التي كانوا يواجهون بها الرسل الذين جاؤوا لينذروهم بعذاب الله، أما جوّ الحديث عن العذاب كما هو الرأي الأول فانه لاحق للآية في ما يأتي من آيات[١].

تحديد المراد من قوله تعالى: ﴿وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٧]، فقد فسر بأن المعنى بغير تقتير، لأن من عادة المقتر

---

(١) المرجع السابق ج١٨/ ١٠٨.

أن لا ينفق إلا بحساب، وقيل: أي بغير إخافة نقصان لما عنده، وقيل - كما عن السيد الطباطبائي - أن توصيف الرزق بغير حساب إنما هو لكون الرزق منه تعالى: بالنظر إلى حال المرزوقين بلا عوض ولا استحقاق، فلا يقابل عطيته منهم شيء، ولكن السيد فضل الله رجّح من خلال جو الآية وسياقها أن تكون الآية كناية عن عدم محدودية رزقه من حيث عدم محدودية ملكه، لأنه المطلق في ذاته وفي غناه، فلا ينفذ ما عنده بالإنفاق والعطاء لأنه لا حد له في ملكه[١].

تحديد المراد من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، إذ فسر السيد الطباطبائي الآية بأنها في مقام التمثيل للمؤمن والكافر بالبحر العذب والمالح بحيث يتبين عدم التساوي بينهما في الكمال الفطري وأن تشاركا في غالب الخواص الإنسانية وآثارها.

◉ وقد لاحظ السيد فضل الله على تفسيره أن الظاهر من الآية وسياقها حيث جاءت في جوّ الحديث عن آيات الله الكونية، على خلاف ما ذكره السيد الطباطبائي لأنها وردت في سياق ما تمثله هذه الآيات من دلائل التوحيد وعظمة القدرة.

٢ - **لرفع التناقض والتضاد بين الآيات**: إذ قد يبدو من بعضها معنى لا ينسجم مع معنى آخر يبدو من آية أخرى، فيكون السياق الدليل الصالح للتمييز بين الموارد التي تتحدث في اطارها الآيات القرآنية، وأن بعضها يتحدث عن مورد وبعضها الآخر يتحدث عن مورد آخر.

---

(١) المرجع السابق، ج٥/ ٣٠٥.

ويمكن أن نشير إلى مورد من هذه الموارد، إذ ورد قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، حيث تفيد شمولية السؤال للناس والمرسلين، في وقت يظهر فيه من آية أخرى عدم سؤال المجرمين، إذ يقول الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ [الرحمٰن: ٣٩-٤١].

وقد أجيب عن ذلك كما عن عدد من المفسرين بعدة أجوبة منها: أن الآية الأخيرة تنفي سؤالهم سؤال استرشاد واستعلام إذ يسألون سؤال التقريع والتبكيت، أو أنهم يسألون يوم القيامة ثم تنقطع مسألتهم عند حصولهم في العقوبة ودخولهم النار، أو لأن في يوم القيامة مواقف، ففي بعضها يُسأل وفي بعضها لا يُسأل.

وقد كتب السيد فضل الله في التعليق على هذه الآراء: «وربما كان الأقرب للسياق في آيات نفي السؤال أنها واردة في مورد التأكيد على أن الله يعلم ذنوب المذنبين وإجرام المجرمين فلا حاجة به إلى سؤالهم للتعرف على ذلك مع وضوحها عندهم من خلال ما يعرفونه من أنفسهم وما يقرأونه في كتاب الأعمال الذي يراد للإنسان قراءته ليكون الحسيب على نفسه بنفسه، ويتطلع المجرمون إلى ما فيه فيجدونه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاه، ولذلك فان هناك وضوحاً في قيام الحجة عليهم المبرِّرة لعذابهم، أما آيات السؤال فهي واردة لإقامة الحجة عليهم بإظهار أعمالهم من خلال اعترافاتهم. فلكل آية سياق يختلف عن سياق الآية الأخرى»(١) . . .

(١) المرجع السابق، ج١٠/٢٢.

٣ - **لقبول الروايات أو ردّها**، فإذا اتفقت الرواية مع السياق القرآني كانت موضع قبول، وإن خالفت السياق ردّت.

ففي تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]، قَبِل ما روي من محاولة شاس بن قيس اليهودي إثارة الاحقاد التاريخية بين الأوس والخزرج والوقيعة بينهم، وذلك لأن سياق الآيات المتأخرة عن هذه الآية تفيد أن هناك شيئاً من الجو الذي ذكرته الرواية(١).

ولكن السيد فضل الله ردّ الرواية المنسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام في كون الرجل الذي عبس في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] هو رجل من بني أمية، وذلك لأن جوّ الآية وسياقها لا ينسجم مع الرواية، حيث أن سياقها ظاهر في أنه يملك دوراً رسالياً وأنه يتحمل مسؤولية تزكية الناس(٢).

كما أنه ردّ الرواية في خصوص قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: ٤]، إذ ورد في الرواية أن جبرئيل استأذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأذن له فلم يدخل لأنه لا يدخل بيتاً فيه صورة أو كلب، فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جرو، فقال أبو رافع مولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره أن لا يدع كلباً بالمدينة فقتلها جميعاً، إلا كلباً يحرس امرأة فأشفق عليها، فأمره النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقتله فقتله، فجاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم ناس، فسكت النبي فنزلت هذه الآية فأذن للمسلمين باقتناء ما ينفع من الكلاب.

وقد ردّ السيد فضل الله هذه الرواية لارتباك مضمونها وعدم

(١) المرجع السابق، ج٦/ ١٧٩.
(٢) المرجع السابق، ج٢٤/ ٦٥.

التناسب بين الرواية وسياق الآية الكريمة، لأن سياقها وارد في السؤال عن تحديد ما أحل لهم بشكل مطلق مما يتصل بحياتهم لا من الكلاب[١].

العدول عن السياق:

ولكن يمكن للمفسر أن يعدل عن السياق لتأييد تفسيره إذا وجد ما يصلح دليلاً عليه، ولذلك جعل السيد فضل الله فاعل (زيَّن) في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [آل عمران: ١٤]، الله سبحانه وتعالى، مخالفاً السيد الطباطبائي الذي جعله الشيطان معتمداً على السياق لأنه - السياق - وارد في الحديث عن الكفار، ولكن السيد فضل الله وجد ما يصلح دليلاً على خلافه، لأن للقرآن أساليبه التي ينتقل فيها من موضوع إلى آخر من أجل عرض الخطوط العامة في ميزان القيمة الروحية[٢]...

ولأجل ذلك ردّ السيد فضل الله محاولة الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، إذ أنه جعلها واردة في تأمين النبي ﷺ، من مكر اليهود والنصارى معتمداً على السياق القرآني، وذلك لأن تنظيم الآيات - من وجهة نظر السيد فضل الله - خاضع لارتباطها في الأجواء العامة للفكرة التي قد تشتمل على جزئيات ومفردات متنوعة، ولذلك يعدل السيد فضل الله من السياق إلى تفسير الآية بما روي من نزولها بحق علي عليه السلام في غدير خم

---

(١) المرجع السابق، ج٨/ ٣٤-٣٥.
(٢) المرجع السابق، ج٥/ ٢٦٠-٢٦١.

والذي لا يبتعد عن السياق أيضاً[(١)].

ويظهر في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] فرد الاستدلال بالسياق الظاهر في اختصاصها بنساء النبي ﷺ وذلك لأن الأحاديث على كثرتها وتعدد طرقها وصحة أسانيدها لم تُشِر من قريب أو بعيد إليهن مما يجعل الآية منفصلة عن السياق، وإن كانت الآية وضعت في ضمنه للمناسبة[(٢)].

السياق الفكري:

وفي إطار الحديث عن السياق في القرآن، يمكن أن نشير إلى ما أسماه السيد فضل الله بالسياق الفكري، حيث ورد في تفسيره (من وحي القرآن) ما يؤشر إلى أنه يعدُّ قرينة صالحة للتفسير.

ونلاحظ في تفسيره أنه سجّل تحفظه على دعوى علم الأنبياء والرسل بالواقع الذي يلي حياتهم وحاضرهم، حيث فسّر السيد الطباطبائي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩]، أنه وارد على ما يقتضيه الأدب العبودي، ولذلك لا ضير ولا مانع من أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلق بأحوال أممهم.. فكتب السيد فضل الله: «ونحن نلاحظ على ما ذكره أنه خلاف ظاهر الآية في سياقها الفكري في الموضوع الذي جاءت الآية لتأكيده، وهو أن الأنبياء لم يطلعوا على الواقع الذي كان يعيشه الناس من بعدهم لأنهم لم يملكوا معرفته حتى بواسطة العلم الذي يمنحهم الله إياه من غيبه

---

(١) المرجع السابق، ج٨/ ٢٦٦-٢٧٦.

(٢) المرجع السابق، ج١٨/ ٣٠١.

المستقبلي، لأنه لم يمنحهم علم ذلك، إذ لا حاجة لهم به في مهمتهم الرسالية المقتصرة على إبلاغ الرسالة للناس بكل الوسائل المتاحة لهم، فالآية تدل على أن الرسل كانوا في مقام نفي العلم عن معرفة النتائج الحاسمة الأخيرة في الموضوع، لأنه غيب الله الذي لم يطلعوا عليه..»(١).

كما لاحظ على الآراء التي حاولت تفسير بعض المعجزات بطريقة تأويلية تقترب من الوسائل العلمية أو بما يجعلها مجرد إدعاء، وهذا ما يظهر من موقفه من تفسير المنار حيث عمد الشيخ محمد رشيد رضا إلى إدعاء عدم وقوع شيء من المعجز من النبي عيسى عليه السلام من الإحياء وغير ذلك وإنما كان ذلك منه للتحدي وإدعاء إمكان وقوعه منه.

وقد استغرب السيد فضل الله مثل هذا التأويل لمجرد أن ذلك من الأمور المستبعدة أو التي تدخل في عالم الغيب المطلق، لأن وقوع المعجز - كما يرى السيد فضل الله - ينتمي إلى عالم الغيب الذي تنطلق فيه الوسائل بطريقة غير اعتيادية..(٢).

السياق التاريخي:

وقد يلتقي الباحث بما يمكن تسميته بالسياق التاريخي الذي شكّل سمة لمنهج السيد فضل الله في تفسيره (من وحي القرآن)، وهذا ما نلاحظه في موقفه تجاه ما يمكن أن يستدل به على روح التسامح الإسلامي تجاه الكفر والشرك، حيث يستدل بقوله تعالى: (قل للذين

---

(١) المرجع السابق، ج٨/ ٣٨٥-٣٨٦.
(٢) المرجع السابق ج٦/ ٢٤.

آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزئ قوماً بما كانوا يكسبون)، إذ رأى السيد فضل الله أن سياقها التاريخي يجعل الآية واردة في مرحلة الدعوة التي كانت تريد أن تفتح القلوب على الله وتدفع العقول إلى التفكير، حيث كان المسلمون يلاقون الاضطهاد من الكفار ويسمعون الكلام القاسي اللامسؤول، ولذلك فإن الآية لا تصلح دليلاً على إدعاء كون الإسلام متسامحاً تجاه فكرة الشرك والكفر، بقدر ما كانت الآية ظاهرة في الدعوة إلى دراسة الانحراف عن الإيمان بطريقة متوازنة لتحديد الأسلوب الأفضل لمواجهته(١).

وفي هذا السياق نفسه ردّ السيد فضل الله الروايات التي وردت في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، حيث روى أن الشيطان ألقى على لسان النبي في مجلس كان يحضره المشركون ورؤسائهم ما يثني على اللات والعزى.. وكان في بعض مسوغات ردّ السيد فضل الله تعارض هذه الروايات مع السياق التاريخي.

(١) المرجع السابق، ج٢٠/ ٣١٢.

المقولة الرابعة

الاستيحاء

اختلف المفسرون في مناهجهم إلى درجة كبيرة، قد يُخيّل للقارئ معها اختلاف المراد من الكتاب الكريم وتعدده، ولكن مردّ هذا الاختلاف في حقيقته يرجع - وإن كان هناك اختلاف - إلى الزوايا والمناحي التي يهتم بها المفسِّر، حيث الاهتمام باللغة إن من حيث البلاغة والصورة أو من حيث الإعراب والنحو، أو الاهتمام بالجانب الروائي، أو الجانب الاجتماعي أو التربوي، أو الفلسفي والعرفاني، أو العلمي والمعرفي..

ولكن - مع ذلك كله - هناك اختلاف عميق وإن كان محصوراً من الناحية التطبيقية في مساحة معينة، إلا انه يترك أثره في التفسير من حيث تحديد المراد من الكتاب الكريم وتحديد دلالات الآيات، بحيث يكون الاختلاف في هذا التحديد أمراً واقعاً لا ريب فيه.

ولعل أهم المناهج التي تندرج في هذا الإطار ثلاثة:

- المنهج الأثري أو الروائي.
- المنهج الفلسفي أو العقلي.
- المنهج العلمي

وإنما نشير إلى هذه المناهج الثلاثة بالتحديد لكونها مناهج ذات أثر فعّال في التفسير، تتجاوز النواحي التي يهتم بها المفسِّر من حيث اللغة والإعراب والاجتماع والتربية والتشريع..

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن للسيد فضل الله رأياً في هذه

المناهج، تجعل من المفيد الإشارة إليها وتحديد رأيه تجاهها، وموقفه العام في التفسير، واعني به المنهج الذي اختاره في تفسيره (من وحي القرآن).

المنهج الأثري:

سبق أن أفردنا فقرة خاصة بموقف السيد فضل الله من التفسير بالرواية، وموقفه من روايات وأخبار التفسير، وكيف تعاطى في تفسيره (من وحي القرآن) مع التراث الضخم من الروايات التي وردت لبيان المراد من الآيات الكريمة مما وصلنا من هذه الروايات، ولذلك لا نعيد ما ذكرناه، ونكتفي بالإحالة عليه.

المنهج الفلسفي:

وفي جملة المناهج التي تركت تأثيرها الكبير في حركة التفسير (المنهج الفلسفي) حيث عمد عدد من المفسرين إلى اللجوء إلى الفلسفة لتحديد المدلولات القرآنية وتحديد المراد من الآيات الكريمة، إن على مستوى التفكير الفلسفي الدقي المحض بعيداً عن الفهم العرفي الذي يستند إلى الظهور اللفظي، أو على مستوى الاستدلال بنظريات ومقولات ومعطيات فلسفية ومحاولة تحميلها القرآن الكريم.

وقد اختلف أرباب هذا المنهج في مدى تكريس الفلسفة في تفسير القرآن، إذ بالغ بعضهم في اللجوء إلى الفلسفة ومقولاتها إلى حد كبير أضاع معها البعد القرآني الفريد، إلى درجة أصبح معها تفسير القرآن الكريم (نصاً) فلسفياً وإن أعطي طابع التفسير، فيما حاول البعض الآخر الاعتدال في اللجوء إلى مقولات الفلسفة ومعطياتها.

وبعيداً عن المنهج المفرط في تفسير القرآن بأدوات الفلسفة ومقولاتها، يمكن أن نشير إلى نص معتدل، نقتبسه من تفسير السيد

الطباطبائي، وبالتحديد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [فصلت: ١٩-٢١].

وقد أرجع السيد الطباطبائي هذا النطق إلى العلم الذي تحملته هذه الأعضاء فهو - عندئذ - نطق وتكليم حقيقة[(١)] وحاول أن يستدل على مدعاة بمقولات الفلسفة، ولذلك فسّر عدداً من الآيات من قبيل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ٤ - ٥]، في ضوء هذه المقولات وذلك لجهة أن العلم صار في الموجودات عامة، فيكون ما صدر عن هذه الموجودات عن علم وإرادة حقيقة[(٢)].

وفي هذا السياق رأى السيد الطباطبائي أن من أحكام الأعمال أنها محفوظة مكتوبة ومتجسمة[(٣)]، ولذلك رأى أنه ليس من الممتنع أن تتمثل الأعمال عند الحساب وعندئذٍ يمكن وزنها كما هو مفاد قوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨][(٤)].

وقد لاحظ السيد فضل الله على الموارد التي ذكرناها وغيرها بأن المسألة ليست مسألة الإمكان والاستحالة - كما هو المفهوم الفلسفي،

---

(١) الطباطبائي، الميزان، المرجع السابق، ج١٧/ ٣٧٩.
(٢) المرجع السابق نفسه، ج١٧/ ٣٨١.
(٣) الطباطبائي الميزان في تفسير القرآن، ج٢/ ١٨٠.
(٤) المرجع السابق، ج٨/ ١٦.

لنبحث عن توجيه للتجسيم مثلاً، بل إن المسألة تتصل بظهور النص القرآني، حيث يمكن أن يكون الكلام وارداً مورد الاستعارة والكناية[1] . . .

وبشكل عام ينأى السيد فضل الله في تفسيره (من وحي القرآن) عن الفهم المتكلِّف الذي يبتعد عن الذهنية العرفية ويقارب الفهم الفلسفي أو الدقي.

وفي هذا المجال يمكن أن نشير إلى ما سجّله من تحفظ على ما ذكره السيد الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١]، إذ ذكر السيد الطباطبائي في التفسير أن التدابير الجارية في الكون مختلفة، منها التدابير العرضية، كالتدبيرين الجاريين في البر والبحر، والتدبيرين الجاريين في الماء والنار، ومنها التدابير الطولية التي تنقسم إلى تدبير عام كلي وتدبير خاص جزئي محكوم، كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادي برمته وتدبير نوع من الأنواع المادية، فبعض التدبير، وهو التدبير العام الكلي، يعلو بعضاً، بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه لتقوّمه بما فوقه، كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضي، أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم، لم يكن هناك عالم إنساني، ولا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص. ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عالٍ من التدبير عالياً بالنسبة إلى الإله الذي فوّض إليه من التدبير ما هو دونه وأخص منه وأخس، واستعلاء الإله على الإله محال . .

---

(١) فضل الله، من وحي القرآن، ج١٠/ ٢٩ وراجع ١٩/ ٢٦٩.

وقد كتب السيد فضل الله تعليقاً على تفسير السيد الطباطبائي لهذه الآية: «ولكن هذا التفسير - على طرافته - لا ينسجم مع طبيعة التعبير، والجو الذي يريد إثارته في الذهنية البسيطة العادية، التي لم تكن لتتصور مسألة التعدد إلا بالطريقة التي تتعدد فيها المواقع السلطوية في ساحة الصراع، فتمتد إلى أن يعلو أحد الطرفين أو الأطراف على الآخر لتكون السلطة له وحده، وهذا هو الذي استخدمه القرآن في كلمة العلو التي ذكرها في قوله تعالى عن فرعون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ [الدخان: ٣١]. . »(١).

المنهج العلمي:

وقد شاع في حقبة سابقة على خلفية الرغبة في المواءمة بين الآيات القرآنية وبين ما انتهى إليه العلم من معطيات ومنجزات حديثة.

وقد تحفظ السيد فضل الله على هذا المنهج في مقام التفسير وإن كان أشار إلى الجو القرآني الذي يعمّق المنهج العلمي في حياة الإنسان، فقد كتب تعليقاً على ما ذكره سيد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» وبالتحديد في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥]: «وقد لا نستطيع التأكد من هذه التصورات العلمية، كما لا نتمكن من إخضاع المضمون القرآني لها، ولكنا نجد في هذه الظاهرة المحسوسة، في صب الماء من السماء توجيهاً للفكر الإنساني ليتأمله، وليتعمق في دراسته وفي القوانين الإلهية الكونية التي تحكمه، ليزداد بذلك معرفة فيزداد بالمعرفة إيمانا، ولأن أي تفسير ينطلق من القانون الإلهي، لا بد أن يثير الشعور بالعظمة في التدبير والتقدير»(٢).

(١) المرجع السابق، ج١٦/ ١٩٢.
(٢) المرجع السابق، ج٢٤/ ٧٦.

الأسلوب الاستيحائي:

وإذا كان قد تحفظ السيد فضل الله على المناهج الثلاثة التي أشرنا إليها، فانه اختار لنفسه ما أسماه بالأسلوب الاستيحائي، والذي - ربما - تفرَّد في تكريسه وتجذيره في فهم القرآن وتفسيره، دون أن يعني ذلك تجاوز الفهم العرفي للنص القرآني بمعونة الظهور والسياق والرواية أيضاً.

وقد عرَّف السيد فضل الله هذا الأسلوب - أعني الأسلوب الاستيحائي القرآني - بأنه هو: «الأسلوب الذي يجعل الإنسان ينطلق من الآية إلى عوالم أخرى من خلال طبيعة الغايات التي تتحرك إليها مما تلتقي به في أكثر من أفق، في نطاق القواعد الإسلامية والعربية العامة، وهذا هو الذي يجعلنا ننتقل من الصورة المادية إلى الصورة المعنوية، ومن التجربة التاريخية للمجتمع الذي نزل القرآن فيه وعالج مشاكله وتحدياته وقضاياه إلى التجربة الجديدة التي نواجه فيها تحديات الواقع ومشاكله، الأمر الذي يجعل للقرآن صفته «الحركية» إلى جانب الصفة التشريعية والتوجيهية والوعظية ونحو ذلك»(١).

وقد ذكر السيد فضل الله أن هذا الأسلوب هو «الأسلوب الذي جرت عليه أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام في الإشارة إلى التطبيق بعنوان التفسير، للتأكيد على حركة القرآن المستقبلية في القضايا الفكرية والعملية الممتدة بامتداد الحياة»(٢).

---

(١) المرجع السابق، ج١/ ١٦.

(٢) المرجع السابق، ج٧/ ٣٢٥ وراجع: ٨/ ٢٠.

وبذلك يمكن أن يُشار - كما أشار السيد فضل الله - إلى نقطتين ينبغي استحضارهما في الاستيحاء القرآني:

الأولى: إن الآية لا تتجمد في النقطة التي انطلقت منها ونزلت فيها، لأن أسباب النزول لا تمثل إلّا المنطلق الذي تحركت الفكرة من خلاله بعيداً عن كل ما يحددها ويقيدها في دائرته، ولذلك عاشت الآيات الكريمة لتتسع وتمتد مع الزمان والمكان في كل مجال يتسع للفكرة وللمفهوم من خلال النموذج الأول، فكان من جراء ذلك أن أصبحت الآيات تعيش معنا صراعنا مع الكفر والشرك والظلم والطغيان تماماً كما كانت تعيش مع نماذجها الأولى صدقاً والتزاماً وإرادة حرة تتحدى الواقع المنحرف بكل ما تملكه من خطوات الحرية في الفكر والعمل، وهذا ما وردت فيه الكلمات المأثورة من أئمة أهل البيت عليهم السلام: إن القرآن يجري كما تجري الشمس والقمر.

الثانية: إن الآيات قد تتحرك في نطاق مضمون فكري معين، ولكنها توحي لنا بشكل آخر، باعتبار علاقة المعنى الذي تتضمنه الآية بالمعنى الآخر من حيث طبيعة النتائج العملية ومن حيث وحدة المسار، وهذا هو ما عبّرت عنه بعض الأحاديث المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بالتأويل، الذي لا يقصد فيه إعطاء اللفظ مدلولاً ثانياً غير المدلول الذي يظهر فيه بحسب وضعه اللغوي بل يقصد استيحاء المعنى الحقيقي ومن أجل الإيحاء بمعنى آخر، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] فقد ورد في كتاب الكافي بإسناده عن فضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد الباقر عليه السلام: قول الله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]؟ قال: من حرق أو غرق، قلت: فمن أخرجها من ضلال إلى هدى؟

قال: ذاك تأويلها الأعظم» والظاهر أن المراد من التأويل الأعظم هنا هو المفهوم الأعمق بما يتسع له إيحاء الآية، لأن قيمة الحياة تتمثل في ما تحققه من الارتباط بالله والسير على هداه فلا قيمة لها إذا كانت سائرة في خبط عشوائي في الضلال(١).

وبذلك استطاع السيد فضل الله أن يجعل من دروس التفسير والخطاب القرآني خطاباً فاعلًا وحاضراً على الدوام في الحياة كلها، إن على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الفكري.. كما استطاع أن يوائم بين ما قيل من وجوب التفسير بالرواية وبين عدم الجمود بالقرآن، باعتبار ما ورد من التفسير بالرواية مما روي عن الأئمة عليهم السلام تفسيراً بالمصداق ومن باب التطبيق(٢).

ومن الجدير بالذكر أن لكلمة (استيحاء) مما ورد في تفسير (من وحي القرآن) استعمالات ثلاثة(٣):

الأول: بمعنى الاستفادة وأخذ العبرة والدرس من الآيات القرآنية، ولذلك يضع السيد فضل الله - في الغالب - في خاتمة الآيات المفسَّرة عنواناً «ماذا نستوحي من الآيات».

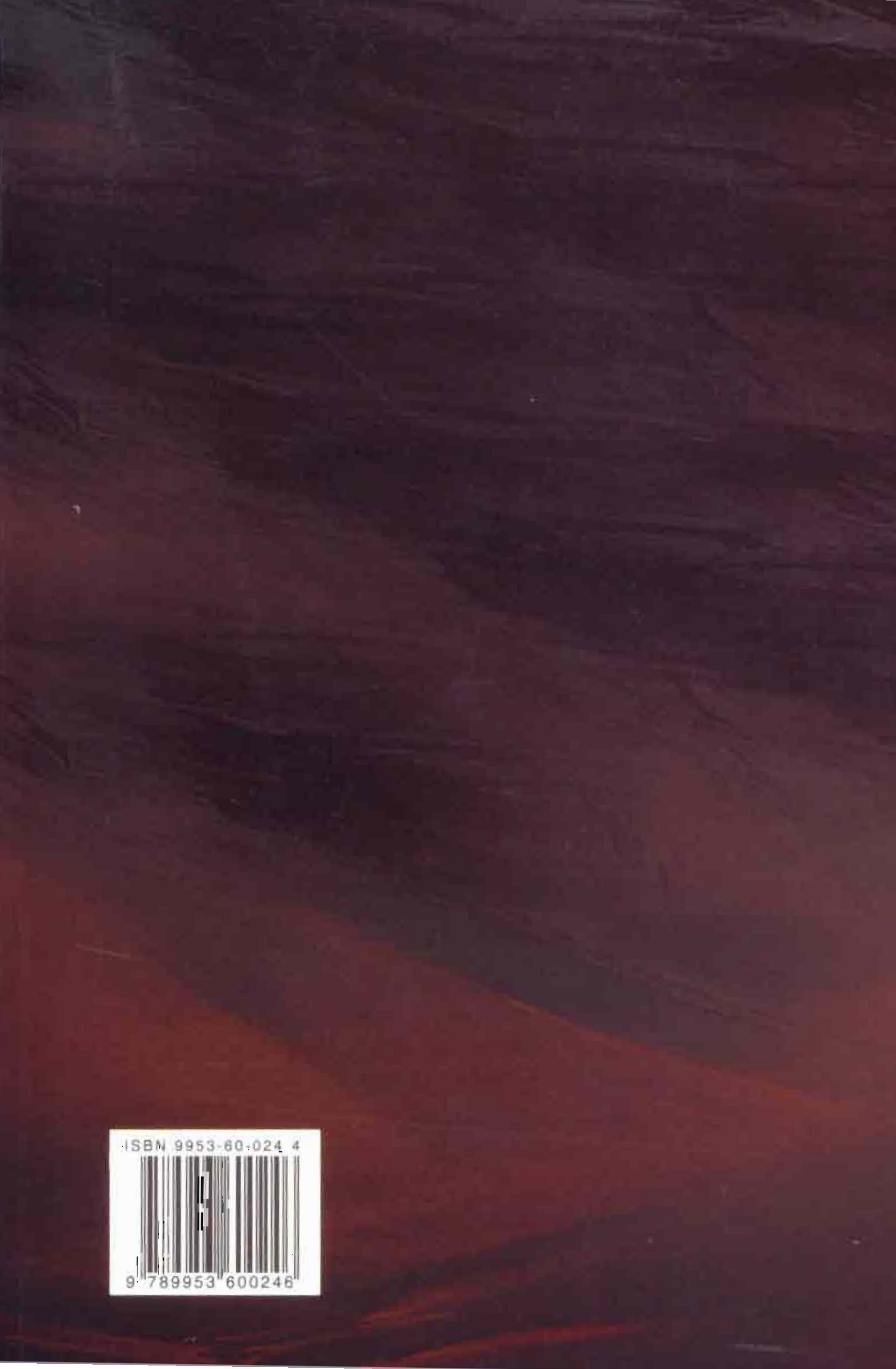
الثاني: بمعنى التطبيق أو الانتقال من المادي إلى المعنوي كما مرت الإشارة إليه مما روي عن الإمام الصادق عليه السلام.

الثالث: بمعنى الاستظهار، أي اكتشاف الظاهر القرآني، وهو مما له علاقة بالظهور وبما يرتبط باللفظ مباشرة.

---

(١) المرجع السابق، ج١/٢٦-٢٧.
(٢) المرجع السابق، راجع: ج١٧/ ٢٦٥، ج١٠/ ٣٠.
(٣) راجع كتابنا: مطارحات في قضايا قرآنية، المرجع السابق، ص١١٢.

الفهرس



ISBN 9953-60-024-4